الهروب
إلى الجحيم

ح محمد عصبي الغامدي، ١٤٤٠ هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الغامدي، محمد عصبي محمد
الهروب إلى الجحيم. / محمد عصبي محمد الغامدي. - مكة المكرمة، ١٤٤٠ هـ
١٤٤ ص، ١٤×٢٠ سم
ردمك: ٥-٤٦١٠-٠٣-٦٠٣-٩٧٨
١- القصص العربية - السعودية ٢- القصص الاجتماعية - السعودية
ديوي ٨١٣ ٠٣٩٥٣١ ١٤٤٠/٧٦٦٥

رقم الإيداع: ١٤٤٠/٧٦٦٥
ردمك: ٥-٤٦١٠-٠٣-٦٠٣-٩٧٨

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

دار الطرفين للنشر والتوزيع
الطائف - وادي وج - جنوب جسر خالد بن الوليد
جوال: ٠٥٠٥٧٠٤٨٠٨ - ٠٥٠٣٥١٢٤٩٩
www.tarafen.com
tarafen@maktoob.com

رواية..

الهروب إلى الجحيم

تأليف

محمد بن عصبي الغامدي

بسم الله الرحمن الرحيم

(١)

دخل المعلم اسـكندر أحد المنتمين لمؤسسة عصام أبو دف العامليـن في مجـال المقـاولات المعماريـة إلى مكتب المؤسسـة فوجد السيد صبري جالسًا بمفرده.

- مساء الخير يا أخي صبري.
- مساء الخير.
- أين السيد عصام.؟
- لم يحضر اليوم. ماذا تريد.؟
- أريد مقابلته.
- بإمكاني خدمتك إذا أردت.
- بإمكانك فعلًا.....وعندها نحن ب نستفيد وأنت تستفيد.
- ماذا تقصد.؟
- أقصد أننا لن ننساك من الأرباح.
- لا أريد فائدة من قِبلك.

- إذًا أريد مقابلة السـيد عصام...وهو الذي يعرف مصلحته أين تكون.

- ليس هذا من اختصاصي.

- إن هذا اختصاصك لو أردت.... وبدل ما تأخذ ألف تأخذ عشـرة....ولكنك لا تريد أن ترى النور مثل بقية الناس.

- أنا لا أريد حرامًا.

- ومن الذي يريد حرامًا.

- كيف إذًا؟

- قلت لي كيف..

لدي عقد بإنشاء عمارة مكونة من خمسة أدوار في حي البوادي وسوف أقبض منه المبلغ على دفعات وأنت لديك كافة الصلاحيات والأختام وبدل ما يأخذ السـيد عصام النسبة المعلومة.....سوف تأخذ أنت نسـبة أقل منها ونحن نسـتفيد وأنت تستفيد..... سـيّما وأنت لديك كافة الأختام والصلاحيـات وتعيش مع الناس والأوراق اللازمـة لتنفيـذ العمـل موجـودة عنـدك..... وكثير من

الناس والمكاتب يعملون هكذا....وأنت الكسبان في الأخير.....

وأنا أريد أن أنفعك وأنت بتصير حلو معانا.

- أعطني وقتًا كافيًا للتفكير.

- لك ذلك.....وسوف أعود لك في الغد لكي أسمع منك ردًا مناسبًا إن أردت أن تعيش وتستفيد يا رجل.

السيد صبري يشرف على كافة أعمال عصام أبو دف بعدما توسعت أعمال المؤسسة بكافة مجالاتها التجارية والصناعية وغدت تضم جاليات مختلفة من اليمنيين والمصريين والأتراك وكذلك الباكستانيين والهنود وغيرهم في الأعمال المعمارية والمحلات التجارية و المطاعم. وغيرها...

❀ ❀ ❀

(٢)

في حـي البغدادية في مدينة جدة يقع مكتب مؤسـسة عصام أبو دف للتجارة والمقاولات والتعهدات العامة.

ويـرى الداخل إلى المكتب أن هذه المؤسسـة تظم عدد كبير مـن العامليـن فمـن المقـاولات المعمارية إلى محـلات الأحذية والملابـس إلـى المطاعم إلـى ورش الحديـد والألمنيوم و ورش لصيانة السيارات وورش التبريد. الخ....

يعمل السيد عصام الذي يبلغ من العمر ٤٠ عامًا في إدارة هذه المحلات مـن مكتبه دون أن يكلف نفسـه الوقوف على العمل في هذه الفـروع المختلفة ويعمـل معه في المكتب بعـض الموظفين. منهـم سـعوديين ومنهـم مـن جنسـيات أخـرى يرأسـهم جميعًـا المهندس صبري.....

منـذ أن يدخـل الزائر لهذا المكتـب يرى أنه عبـارة عن خلية نحل، هذا يطالب في جواز سـفره ويرغب السـفر... وذاك يريد أن يجدد رخصة البلدية...والأخر يريد تجديد إقامته.... ولا يقل عدد المنتمين لهذا المكتب عن مائة فرد في أعمال شتى.

يقوم المهندس صبري بالإضافة إلى الأعمال الإدارية بأعمال المحاسبة لكافة أعمال المكتب.... وعلى السيد عصام أبو دف مراجعة الدوائر الحكومية لاستصدار التصاريح والإقامات... وتجديد الرخص..وما في حكمها. وأصبح دخل المكتب لا يقل عن ٣٠ ألف ريال شهريًا....واستوى السيد عصام من أصحاب رؤوس الأموال والسيارات الفارهة.... فشيّد منزلًا فخما في حي السليمانية....وسكنه مع عائلته المكونة من زوجته غالية و ابناه سليم وطلال وابنته سلوى.

استمرت مؤسسة السيد عصام في الحركة المنتظمة وفي إدرار الدخل المطلوب وغدت لوحات المؤسسة في كل شارع تقريبًا من شوارع مدينة جدة.....وأصبح السيد عصام يحتاج إلى من يساعده في مراجعة الدوائر الحكومية فقام بتشغيل بعض السعوديين عن طريق مكتب العمل بجدة، وأصبحت المؤسسة تظم بالإضافة إليه كل من صبري ويقوم بإدارة المؤسسة إن غاب عنها السيد عصام والمحاسبة وكل من عبد الرحمن وعوض وهما سعوديان، و مستخدم واحد وكانت كل أسرار المؤسسة لدى مساعد المدير السيد / صبري...

تابع السيد عصام فروع مؤسسته خلال السنوات الثلاث الأولى وواظب على دفع الرسوم المطلوبة منه لتجديد الرخص والحصول على تصاريح عمل وتأشيرات استقدام العمال وتجديد إقاماتهم.

واكبت مؤسسته تلك الحركة العمرانية والتجارية التي مرت بها مدينة جدة بعد افتتاح بنك التنمية العقاري الشيء الذي شجع السيد عصام على نقل كفالة كثير من العاملين في المجالات المختلفة وأصبح ملاذا لأغلب العاملين الفارين من أرباب العمل الّذين يتابعون أعمالهم بجدية خلال عملهم.....أما السيد عصام فأنه يكتفي بما يتفق عليه مع أولئك العمال في نهاية كل شهر.... ويدع لهم بعد ذلك حرية التصرف في محلاتهم التجارية أو الورش وحتى العمالة السائبة..

أصبح يقبض من ذاك خمسمائة ريال ومن هذا ألف ريال ومن الورشة على كل عامل كذا وكذا....وغدى دخل المؤسسة عبارة عن نهر جار من كل حدب وصوب وأشتهر في المدينة أنه لا يرهق عماله بما يدفعونه للمؤسسة وأنه شخص ممتاز وأن العامل معه

يتمتع بمطلق الحرية وليس عليه إلّا المعلوم الذي يدفعه في آخر كل شهر.

كان صبري يدير تلك الأعمال بكل سرية وأقتدار بعد أن أصبح يحصل على نسبة من دخل المؤسسة من صاحبها السيد عصام أبو دف أما عبد الرحمن و عوض فالأول يعمل كمعقب للمؤسسة ويحصل على مبلغ معلوم.من كل عامل وذلك. أجرة متابعته أمور أولئك العاملين بالمؤسسة في الدوائر الحكومية. بالإضافة إلى الراتب الشهري الذي يحصل عليه من المؤسسة في نهاية كل شهر.. وأما عوض فعمله إداري كمساعد للسيد صبري..... وقد استطاع السيد عصام أن يجعل من جميع العاملين معه أصدقاء وأن يدفعهم بحسن معاملته ليعمل كل وأحد منهم بجديه ونشاط.....

❀❀❀

(٣)

مـع بداية عطلة المدارس وصل السـيد عصام أبو دف بعائلته إلى سوريا ونزل في أحد الفنادق الفخمة في دمشق وبقي هناك لمدة أسبوع ثم انتقل منها إلى شقة مفروشة وسكن فيها مع عائلته.

في الشـقة المقابلة للشـقة التي أسـتأجرها السـيد عصام كان يسـكن السـيد أديب المالح الذي بلغ من العمر ستين سنة مع زوجته وابنتـه فريال التي لم تتزوج بعد....أما بقية أخوتها الأربعة فقد تزوج أخوها الأكبر مصطفى ويسـكن في شـقة في حي آخر من أحياء دمشق بعيـدا عنهم مع زوجته وأطفاله..... وتزوج كذلك أخواتها الثلاث ولم يبق سواها مع والدتها السيدة حُسـنية ووالدها السيد أديب الذي يملك بقاله صغيرة في عمارة بجانب العمارة التي يسكنون فيها.

كانـت فريـال في الحادية والعشـرين مـن عمرها قـد أكملت دراسـة البكالوريا وتعمـل في أحد المكاتب السـياحية فهي جميلة الملامح..... سريعة البديهة.....ذات وسامة.....

رأها عصام فأعجب بها أشـد الإعجاب.. فكان كثيرًا ما يطلب

من أهلـه زيارة بيت الشـيخ أديب كما يناديـه الجيران..وخصوصًا الأوقـات التي تكون فريـال موجود في البيت.....كمـا كان أيضًا يطلـب من زوجتـه أن تقدم لهـم الدعوات للزيارة والنـزهة خارج دمشـق مع بعضهم في أوقات كثيرة.....وقد أحست زوجته أن ذلك لم يكن إلا لإعجابه بالآنسـة فريال..ولكنها قالت لنفسها: هي فترة ثم نرجع إلى السـعودية...وهذا الإعجاب لا يضيرها بشـيء طالما هي وأولادها موجودين مع السيد عصام..... فلم تلق لذلك الأمر اهتمامًا بالغًا.....وأخذ إعجاب السـيد عصام بالآنسـة فريال يـزداد يومًـا بعـد يوم....حتى تعـلق بها.....فغـدى يزورها في المكتب السياحي بحجة السؤال عن الرحلات والمناطق السياحية كما كان يذهب عن طريق ذلك المكتب في نزهات ورحلات ينظمها المكتـب.. إذ كانـت الآنسـة فريال تعمل مرشـدة سـياحية...ومن خلال ذلك أصبح لا يريد أن يفارقها أبدًا...كمن قال فيه الشاعر

لم أعد عارفا إلى أين أذهب ... كل يوم أحس أنك أقرب

اعتيادي على غيابك صعب ... واعتيادي على حضورك أصعب

أنت أحلى خرافة في حياتي ... والذي يتبع الخرافات يتعب

وفي يوم من الأيام عزم السيد عصام على أن يقرع ذلك الباب الذي كان يراه أحلى خرافة في حياته فاشترى للآنسة فريال هدية عبارة عن إسوارة من الذهب وذهب إلى المكتب وقدمها للآنسة فريال كهدية.

- ما هذه؟
- هدية أرجو قبولها.
- بأي مناسبة؟
- إعجاب أو عربون صداقة.
- لكن ليس بيني وبينك صداقة.
- اعتبريني صديقًا من الآن.
- شكرًا يا سيد عصام.

كان لقبول الآنسة فريال لتلك الهدية التي قدمها لها عصام ارتياح في نفسه..... فأصبحت همه يريد أن يراها في الصباح والمساء....و لم يعد يعير انتباها كبيرًا لزوجته وأطفاله...وتبعت تلك الهدية هدايا أخرى...وأصبحت زياراته لمكتب السياحة شبه يوميه.

ومـرت مع ذلك إجازة الصيـف وكانت من أجمل الإجازات بالنسـبة للسيد عصام الذي كان يظهر الغنى والكرم الزائد عن حده للآنسة فريال وعائلتها.....ثم عاد بعدها مع عائلته إلى جدة لكنه بقـي قلبه متعلق بها...الشـيء الذي جعله دائـم الاتصال بها في كل يوم تقريبًا....

❀❀❀

(٤)

لاقت فكرة ذلك المعلم المعماري هوىً لدى السيد صبري مساعد مدير مؤسسة عصام أبو دف..... فلم يعد إليه في اليوم التالي إلا وقد اتخذ قرارًا بأن يلعب لعبته في غياب السيد عصام بعد أن أصبح المكتب بكامله تحت إدارته وكما قيل..(المال السائب يعلم السرقة)....

وبعد أن أصبح عصام يفرض شخصيته على بقية العاملين في المكتب ويعتبر جميع أعمال المؤسسة سرية لا يمكن أن يعلم أحدًا بشيء منها إلّا ما يظهره السيد صبري بنفسه لهم.....وبذلك وقّع السيد عصام لذلك المعلم عقده....عاقدًا عزمه على عدم إظهار صاحب المؤسسة عليه....كما أن ذلك المعماري اتفق معه على نصف ما كان يدفعه للسيد عصام مقابل توقيعه للعقود.

وغدى صبري أكثر تسلطاً على كلٍ من عبد الرحمن وعوض واستطاع أن يحصل من السيد عصام على نقل مكتبه في مكان آخر في شقة في العمارة التي بها المؤسسة وبذلك استطاع أن يكوّن لنفسه مؤسسة داخل المؤسسة التي يعمل فيها.

ونقص دخل المؤسسة لكن صبري لم يكن يرغب في إظهار ذلك لصاحب العمل فدخل المؤسسة أخذ في التدرج إلى الخسارة بدلًا من الارتفاع نحو المكسب..... وزاد معه تعلق العاملين في أعمال المقاولات المعمارية بالمؤسسة في مساعد المدير السيد صبري...

عند عودة السيد عصام من سوريا أقام السيد صبري حفل عشاء بمشاركة العاملين لديه في أفخم مطاعم جدة المنتشرة على شاطئ البحر وكان الثناء يكال بدون حساب للسيد صبري من جميع العاملين معه.....الشيء الذي صدقه السيد عصام فزاد من ثقته به ولم يعد كعادته شديد الحرص على متابعة العمل ومحاسبة ما يرد إلى المؤسسة وما يخرج منها.....

(٥)

لم يكمل السيد عصام شهر من وصوله إلى جدة حتى عاد إلى الشام مرة أخرى محملًا بالهدايا للشيخ أديب وعائلته ثم تقدم بعدها لخطبة ابنته فريال عندها قال للشيخ أديب:

- سوف أكون ولدك الثاني يا شيخ أديب.

- لكنني أعرف أن هناك تصريح بالزواج لابد لك من الحصول عليه.

- سوف يكون ذلك مستقبلًا.

- وابنتي. كيف ستعيش هنا وأنت في جدة؟

- سيكون لي بيت هنا وبيت هناك فأنا إنسان مقتدر وأستطيع ذلك.

- هل ستأخذ ابنتي معك إلى جدة؟

- لن يكون ذلك الآن.

- أترك لي وقت للتفكير في ذلك.

- عسى أن لا يكون الوقت طويلًا.

كان السيد عصام يذهب لمقابلة فريال في مقر عملها لكنه يذهب معها بعد انتهاء عملها إلى كازينو على نهر بردى.. واستطاع أن يقنعها بفكرة زواجه منها.

قام بعد ذلك السيد عصام بتأجير شقة مؤقتًا حتى يبني له بيتًا كما يقول فقد أوهم العائلة بفكرة شراء أرض والبناء عليها حيث أنه لا يطيب له السكن في شقة..... فهو إنسان يريد أن يعيش بقية حياته كما يروي لهم في استقرار تام..... ثم بدأ في تأثيث تلك الشقة حتى غدت رائعة حقًا...وقام بشراء أفخم الأثاث وما تحتاج إليه الشقة.....الشيء الذي جعل الشيخ أديب وعائلته يصدقون تلك الدعاوي التي كررها لهم من أنه سوف يبني بيتًا أو قصرًا على سفوح أحد التلال الواقعة في أطراف المدينة.

لم يعد السيد عصام إلى جدة بعد شهر من سفره حتى عقد قرانه على الآنسة فريال..... ولم يبق إلا زواجه منها.والذي تم الاتفاق عليه بعد عدة أشهر من عقد القران.

كان الشيخ أديب يريد أن يتعرف على الرجل فسافر مع صهره الجديد إلى جدة وهناك كانت دهشته الكبيرة عندما اصطحبه السيد عصام إلى منزله حيث أقام فيه مع الشيخ أديب لمدة أسبوع كامل.

أخذ السيد عصام الشيخ اديب في اليوم التالي ليريه ممتلكاته كما يزعم في كل شارع من شوارع مدينة جدة والتي كانت تغص بها اللوحات الكهربائية – فرع مؤسسة عصام أبو دف – حتى اقتنع الشيخ أديب أن صهر المستقبل من كبار رجال الأعمال في هذه المدينة وأصبح يتمنى أن يتقدم موعد زواج ابنته منه. وبقي في ضيافته خلال فترة الزيارة ثم عاد إلى دمشق.

بعد عودة الشيخ أديب كان محملًا بالهدايا..... الشيء الذي جعل تلك الهدايا تُقنع من كان في قلبه أدنى شك من أن السيد عصام أبو دف من أعيان البلد.

❀❀❀

(٦)

لاحظ السيد عصام أبو دف تدني دخل المؤسسة وذلك العد التنازلي الذي ينحدر به فقرر المواظبة في المؤسسة للتأكد من سبب ذلك، لكن السيد صبري أقنعه بأن المصاريف التي تحملتها المؤسسة كانت في تحسين ديكور المكتب وإيجار الشقة التي استأجرها قريبًا من المكان الأصلي للمؤسسة وتأثيثها وهي التي أدت إلى تناقص الدخل زد على ذلك عدم وجود أعمال لبعض العاملين في المؤسسة مما أدى بدوره إلى ضعف دخل المؤسسة. لكنه صمم على متابعته.

وفعلًا وجد أن هناك ثغرات في العمل تدعو إلى الشك فقرر سحب الصلاحيات المعطاة للسيد صبري وتعيين مساعده عوض مساعدًا لمدير المؤسسة وقام بزيادة مرتبه وأوعده خيرًا في حالة زيادة دخل المؤسسة واثبات جدارته في إدارة المؤسسة.

احتدم الجدال والمنافسة بعد ذلك بين السيد صبري وزميله الأستاذ عوض في إدارة المؤسسة فجميع العاملين يفضلون

السيد صبري لعلمهم بأنه يعرف كل صغيرة وكبيرة في المؤسسة وأنه قوي الشخصية ويحسن التصرف والسرية..... بعكس المساعد الجديد الذي تنقصه الخبرة وعدم معرفة التعامل مع هذه الجنسيات المختلفة.....وغدا السيد صبري مصدر إزعاج للمؤسسة وصاحبها والمساعد الجديد عوض أيضًا...مما أدى أخيرًا أن يتدخل السيد عصام أبو دف لتقريب وجهات النظر بينهما وإصلاح ما يمكن إصلاحه....بعد أن تظاهر السيد صبري بالغبن من معاملة السيد عصام له.....وأنه كان ينتظر أن يكافئه بدلًا من جزاء سنمّار الذي واجهه به كما يقول.....

بعد ذلك أخذ صبري في تحسين علاقته بالأستاذ عوض وأدرك أن هذه التغيرات لصالحه.... فقد خرج من المسؤولية وأصبح طليقًا يعمل كيفما يشاء دون أن يتحمل أية تبعات عن تصرفات المؤسسة وأعمالها...، فأصبح يرفع من معنويات زميله عوض أمام الزائرين والعاملين بالمؤسسة ويتظاهر بخدمته عندما يكون موجودًا.. ولكنه يتعمد أن يوقف جميع الأعمال المتعلقة بها عندما يغيب عنها....ولو كان ذلك لساعة واحدة.....من ما جعل

عـوض يعود إلى صـبري اضطرارًا.....ويسـلمه جميع صلاحياته فهـو كثيرًا ما يخرج من المؤسسـة مع بعض زمـلاءه وأقرانه الّذين يأتـون إليـه ليصحبهم في زيـارة أو رحلة بحريـة أو غيرها....وعاد صبري في موقع يمـكنه العبث بكل شيء..... دون أدنى مسؤولية عليه..... كما طلب من بعض العاملين في المؤسسـة تقديم هدايا عينيـة ونقدية إلى المسـاعد عوض كي تسـير الأمور في المؤسسـة على أكمل وجه.

وفعـلًا أدار صـبري المؤسسـة مـن وراء ظهر كل من السـيد عصـام و عـوض وعـاد أكثـر مراوغة مـن ذي قبل وسـارت أمور المؤسسة لمصلحته....

كانـت جل اللعبـة مـع أصحـاب المقـاولات المعمارية أما أصحاب المحـلات التجارية والحرفية فهـم أصحاب دخل ثابت يدفع كل منهم ذلك المعلوم إلى المؤسسة في نهاية كل شهر وفائدة السـيد صبري منهـم قليلة. كمـا أن أصحاب المقـاولات بدأوا في تنفيـذ أعمال كبيرة من مشـاريع وعمارات فخمـة دون علم عصام أبو دف والسيد عوض.

(٧)

وصل السيد عصام إلى دمشق فانطلق مباشرة إلى شقة الشيخ أديب فاستقبل هناك أحسن استقبال وعند طلبه إتمام الزواج لم يكن هناك أي معارضة وقرر العريس أن يقام الفرح في أحد فنادق دمشق وأقيمت الأفراح وبقي السيد عصام مع زوجته في تلك الشقة ثلاثة أشهر وهو يتابع أعماله في جدة بالتلفون ولم يغادر دمشق إلا وزوجته حاملًا.

عاد السيد عصام إلى جدة فوجد العمل في المؤسسة يسير بانتظام ورأى العلاقة التي تربط عوض مع صبري فزاد اطمئنانًا على سير العمل وبقي في جدة بضعة أسابيع تفقد خلالها أحوال زوجته وأطفاله وتناقش مع المشرفين على مؤسسته وأراد العودة إلى دمشق لكن زوجته قد ساورها الشك من هذه السفرة الأخيرة....

- أين تذهب ونحن كما ترى لم نعد نراك إلّا في المناسبات أو الأعياد.

- إنني أريد أن أفتح مؤسسة أخرى في دمشق وأن أدخل شريكًا مع بعض التجار هناك.

- نحن في خير ولا ينقصنا تجارة أو مال.

- زيادة الخير خيرين.

- لا أعتقد أنك تركض خلف تجارة كما تدعي.

- الماء يكذب الغطاس.

- قد يكون الماء ضحلًا.

- وقد يكون صافيًا أيضًا.

- ليس لنا من يقضي حوائجنا إلّا ذلك السائق المغربي الذي لا أخفيك أننا نخاف منه.

- كيف تخافينه وزوجته معه؟

- لا أدري..... لكنني أرى في عينيه الإجرام.

- هذه أوهام..... فهو عندنا منذ خمس سنوات ولم نر منه ما نكرهه.

- لا نريد تجارة في سوريا.

- بل إنه المـــجال الأصلح للاســتثمار..... وفي الأســـبوع القادم سيكون موعدي مع بعض الشركاء هناك لنبدأ شركة جديدة.

- لا أدري لماذا أنت مُصرّ على ذلك.

- لأنها الفائدة،..... والناس يسعون للفائدة دائمًا..... ولكنني أعرف ما تتخوفين منه....و لن يكون من ذلك شيئًا.

- إن قلبي يســاورني بشــك من زيــارة ذلك الشــيخ إلى جدة وبقاءه معنا لمدة أسبوع....

- إنه جاء للعمرة وجميع المسلمين يأتون للعمرة.

- الناس يأتون للعمرة في رجب وليس في ربيع الثاني.

- العمرة لا وقت لها....فهي في أي وقت.

- أتمنى أن لا يكون ما أفكر فيه صحيحًا.

- أنت هكذا..... لكن هذا لا يعنيني.

- إيه..... على الله يكون كلامك صحيح.

- ثقي تمامًا أنه صحيح؛ ولكن كم بقي لديك نقودًا....أقصد هل تحتاجين زيادة مصروف؟

- لـم يبقى لـدي أكثر من ألفيـن ريال وهـذا لا يكفي وربما تتأخـر أنت هناك فنحن نحتـاج إلى الكثير فإما تعطينا فلوسًـا وإما تتصل بالسيد صبري في المؤسسة وتطلب منه أن يرسلها لنا غدا.

- بل سـأخبر صبري أن يبعث لكم خمسـة آلاف كي تنفقين منها على الأولاد وتشترون ما تحتاجون إليه.

❀❀❀

(٨)

عـاد السـيد عصام إلى دمشـق ثـم طلب من زوجتـه أن تترك العمل في شركة السياحة وعاش مع زوجته في أحسن حال واشترى لها سيارة هناك.

كانت زوجته فريال حريصة على إنهاء إجراءات انضمامها إلى جنسـية زوجها السـعودية إلا أنه كان يقابل ذلـك بأنه يعرف جميع موظفي السفارة وأنه خلال يوم واحد بإمكانه أن يعمل ذلك..... لكنـه في خاصيّة نفسـه لا يريد ذلـك.... فهو يخشـى أن هو أنهى ذلـك الإجراء أن تطلب منه فريـال أن تعيش معه في جدة...وهو لا يرغـب ذلك...فهـو يريد أن تكون زوجته هذه دائمًا في سـوريا من أجـل أن يخـرج من جـو العمل ويأتي إليهـا للاسـتجمام هاربًا من العمل والعمال وأن تبقى الشام له ملاذًا للراحة....

وتمـر الأيام ويبقى السـيد عصام بين دمشـق وجـدة أكثر من عشـر سـنوات حتى أنجب من زوجتـه الجديدة بنتان هما سـميرة وسمر وولده فراس.

أما زوجته الأولى فقد أنجبت منه ولد وبنت آخرين هما توفيق وخالدة... وغدى رب لأسرتين ينفق عليهما بسخاء وبذخ زائد.

بعد استقراره في دمشق فترة ليست قصيرة وعندما لمس رغبة الشيخ أديب في بيع دكان البقالة قام بشرائه لزوجته فريال التي كانت تريد أن تقضي فيه أوقات فراغها بعد أن تركت العمل في مكتب السياحة فكان ذلك رحمة لها من المستقبل الذي يسير نحوها بوجه مكفهر وخطى حثيثة لا رحمة فيها ولا شفقة.

لم يعد أحد في الشارع الذي يسكن فيه السيد عصام في الشام إلا تعرف عليه فهو كثير الدعوات للأصدقاء والجيران كما أنه كثيرًا ما يذهب بهم إلى (سيران) رحلات في المناطق القريبة من دمشق.....ولم يبق في الشام قطعة من الأرض إلا رحل إليها بعائلته أحيانًا وجيرانه أحيانًا أخرى....حتى عرف جميع المناطق السياحية والأثرية بالشام وأصبح خبيرًا فيها.

ومع مرور الزمن أصبح بقاءه في سوريا أكثر من إقامته في جدة.....الشيء الذي جعل المؤسسة تنحدر أكثر نحو مصالح

السيد صبري وكذلك عوض الذي أطّلع على ما يقوم به زميله صبري وأصبحا شريكان في ما يختلسانه من أموال المؤسسة..... وقد أدى بهما الطمع وغياب الرقيب والمحاسب وإقامة السيد عصام في سوريا لفترات طويلة..... إلى تذمر بعض العاملين والمنتمين للمؤسسة والخروج منها... ونقل الكفالة...ولم يعد عصام أبو دف بعد فترة إلا وقد تناقص عدد العاملين إلى أقل من نصفهم.... أما العاملين في مجال المقاولات فقد زادت شراهتهم لابتلاع كل شيء ولم يعد للمؤسسة من دخلهم إلا النزر القليل وقد توسعت أعمالهم ووجدوا من السيد صبري وزميله عوض كل تعاون وانقياد فهما لا يستفيدان إلّا منهما.....

❀❀❀

(٩)

عـاد السـيد عصام إلى جـدة وبعد أن وجد المؤسسـة في غير وضعهـا الطبيعي حـاول إصلاح بعـض ما يمكـن إصلاحه إلا أن القربة قد أصبحت مقطوعة ولم يسـتطيع أن يرقّع ما أفسده صبري أو عوض ويصلح الوضع القائم..... بعد أن خسـر نصف العاملين اللذين نقلوا كفالتهم على مؤسسات أخرى.

كان يـرى اهتمام السـيد صـبري وزميله عـوض بالعاملين في المقـاولات المعماريـة فلفت نظره ذلك وطلب منهمـا تقريرًا عن أعمـال المقاولات المعماريـة..... أربكهما هذا الطلب وعرفا أن الشـك والريبة قد سـاور السـيد عصام في ما يقومون به مما أدى بهمـا إلى جمع مبلغ مـن العاملين في هذا المجال تحت الحسـاب وإدخالـه في الكشـف الذي طلبه السـيد عصام منهمـا ومن ثم قاما بإيداع المبلغ في حسابه الخاص الأمر الذي أدى إلى اطمئنان السيد عصام بأن الأمور تسير في طريقها الصحيح.

وفي يـوم من الأيام أتى المعلم اسـكندر الذي يرأس فريق من

المقاولين المعماريين وطلب من السيد صبري توقيع العقد الذي جاء به.

- هذا عقد إنشاء عمارة سكنية في شارع حراء مع كامل تشطيب العمارة وأريدك أن توقع العقد.

- كم تبلغ قيمة العقد؟

- في حدود ٢ مليون ريال.

- كم ستكون حصة المؤسسة؟

- ٥ ٪ من الأرباح مثل العادة.

- هذا لا يكفي.

- لقد اعتدنا على ذلك.

- لكنه لا يكفي الآن.

- إذا لم توقع العقد فسأخبر السيد عصام بكل المعاملات التي سبق أن وقعت عليها.

- أنا لا أقصد إلا أن السيد عصام يريد زيادة.

- هو لن يعلم بذلك بل أنت تريد الزيادة.

- لن أوقع العقد ما لم ترفع النسبة.
- النسبة ثابتة ونحن متفقون معك على ذلك.
- إذا استبعدنا النسبة فكم تكون هديتي من المشروع أنا.
- كان عليك أن تقول ذلك بصراحة.
- هذا ما سمعت.
- ألا تكفيك النسبة هذه..؟. أنت طماع.
- بل عشرة آلاف ريال. فالعقد كبير وأنت سوف تكسب كثيرا.
- وأنا موافق على أن تشارك الأستاذ عوض في ذلك وتتكفل بعدم مطالبته لي بأي مبلغ.
- أنا سأتولى هذا الأمر معه.
- وعبد الرحمن.....
- أنت الآن تعرف أنه يأخذ مقابل كل مراجعة له للجوازات أو الإدارات الحكومية وتعلم أيضًا أننا ساكتين على أعماله فهو لا يتدخل في شؤوننا.
- إذًا اتفقنا.

بعد فترة من توقيع العقد ذلك أتى إلى اسكندر المؤسسة وأخرج للسيد صبري برقية من أهله مفادها أن والده قد توفى ويجب عليه أن يسافر فورًا... وأخذ يظهر حزنًا عميقًا وبكاءً حارًا....مما جعل السيد صبري وزميله عوض يصدقان ذلك البكاء، ويساعدانه في طلب تأشيرة خروج وعودة لحضور العزاء في والده وتفقد أحوال أسرته.

وفعلًا عملت له تأشيرة وسافر اسكندر بعد أن أدرك أنه قد حصل على كل ما يريده وما لا يريده من هذه المؤسسة.

بدأت آثار ذلك المسافر تظهر إلى العيان يومًا بعد آخر فبعد كل فترة من الفترات يأتي إلى المؤسسة من يسأل عنه وكان جواب الموجودين في المؤسسة أن والده توفى وقد سافر في إجازة وسوف يعود قريبا. وتمر الأيام وتنتهي فترة التأشيرة وتبدأ المطالبات تنهال على المؤسسة وتتضح الرؤيا يومًا بعد يوم.

وفي يوم من الأيام تقدم صاحب العقد المشؤوم والذي قام بتوقيعه نيابة عن المدير العام السيد عوض يطلب فيه تنفيذ ذلك العقد أو رد ما أخذ منه المقاول المسمى اسكندر وقدره ثلاثمائة وخمسون ألف ريال.... كدفعة أولى من قيمة عقد إنشاء المجمع التجاري.

لـم يعلـم السـيد عصـام أبـو دف عندمـا كان داخلًا إلـى مكتب المؤسسـة أن رجـال الأمـن ينتظرونـه بفـارغ الصبر في سـياراتهم عند مدخـل المؤسسـة بعـد الكتابة له لأكثر مـن ثلاث مـرات والتي كانت تختفي بمجرد وصولها إلى المكتب من قبل عوض وزميله صبري ولم ينزل من سيارته حتى ألقي القبض عليه وعلى كل من عوض صبري.

بعد وصول الجميع إلى مخفر الشـرطة وضع كل واحد منهم في غرفة وبدأ التحقيق. وفي خلال فترة قصيرة من التحقيق اسـتطاع المحققون اكتشـاف جميع ما يجري حول هذه المؤسسـة واتضح أن مؤسسـة عصام أبو دف لـم تكن إلا غطاء للممارسـة أصحاب المحلات التجارية والمهنية أعمالهم تحت كفالته مقابل مبلغًا من المال في نهاية كل شهر. وهذا ما يعرف في النظام (بالتستر)..

بـدأت الاتهامـات والعقوبات تحط على كاهل السـيد عصام أبو دف. وتم اسـتدعاء كل العاملين تحت تلك اللوحات التجارية والتحقيـق مـع العاملين بها وقبض على من قبـض عليه وأفلت من العقوبـة مـن أفلت وسـافر من سـافر وأضحت مؤسسـة السـيد عصام أبو دف أثرًا بعد عين.

اعترف أغلب العاملين معه بنمط العلاقة التي كانت تربطهم بصاحب المؤسسة وكذلك العلاقة التي كان يمارس بها السيد صبري وزميله عوض إدارة المؤسسة ومقدار المبالغ والنسب التي كانت تعطى لهم ولم ينتهي التحقيق حتى أصبحت المؤسسة وحكاياتها وأخبارها على كل لسان في مدينة جدة.

أجبر عصام أبو دف على دفع المبلغ الذي استلمه المقاول من صاحب العمارة السكنية وكذلك مباني أخرى تم الاتفاق مع أصحابها وتوقيع العقود معهم ولم تنفذ..وأيضًا عدة غرامات مترتبة على قيامه بالأعمال غير المشروعة مع العاملين معه في المؤسسة حتى اضطر إلى بيع مسكنه وما يملك..... بعد أن وصلت ديونه إلى أكثر من ثلاثة ملايين ريال وحكم عليه بالسجن لمدة خمس سنوات.

بعد بيع منزله سكنت أسرته في شقة مستأجرة ولم يعد لذلك العز والبذخ أي أثر..... بل لقد باتوا يعتمدون على ما يتصدق به عليهم أهل الخير. أما هو فقد أصبح في حالة نفسية يرثى لها.

أصبح أولاده في عداد الفقراء وتولى أقاربهم الإشراف عليهم أما الديون التي ترتبت على المؤسسة. فقد تم بيع البيت وبمساعدة أهل الخير تم تسديد بعض الديون بعد تنازل أصحابها عن بعض مديونياتهم. أما السيد عصام أبو دف فقد نشرت فضيحته في الجريدة الرسمية وحذرت الجهات المختصة بعدم التعامل مع تلك المؤسسة بعد التأكد من الأعمال غير المشروعة التي كانت تمارسها.

حكم على السيد صبري وزميله السيد عوض بالسجن لمدة سبع سنوات ولم يفلت من العقاب سوى السيد عبدا لرحمن الذي لم تكن علاقته بالمؤسسة سوى التعقيب في الدوائر الحكومية فيما يخص هؤلاء العمال من إقامات وتأشيرات وما في حكمها.

انقطعت أخباره عن أسرته في سوريا فترة من الزمن... إلّا من الاتصال بالتلفون.بعد فترات متباعدة يخبر زوجته أنه بخير لكنه في ظروف صعبة.....فأيقنت أن هناك مصيبة قد حدثت لعصام...

ذات يوم ذهبت فريال إلى الملهى الذي كانت تجلس فيه مع عصام. وجلست في الزاوية البعيدة في آخر الملهى.. وأخذت تستعرض تلك الأيام الجميلة التي قضتها معه....وتلك السهرات

التـي كانا يقضيانهـا في ذلك الملهـى.... كانت تلهي نفسـها بتلك الذكريـات وتبني آمالا علـى عودته إلى عشـها....ولكن انتظارها طـال كـــثيرا فالبنـات الآن في سـن المراهقـة مـن عمرهما وهما بحاجـة إلى مصاريـف زيـادة ومتابعة أكثـر..... وابنهـا قد تعدىٰ الحادية عشر من عمره....وهي لم تعد تقدر على تحمل مصاريف البيت والأولاد.....

كانـت تبحـث في نفســـها عـن مـبرر يمكـن أن تـــقبله من زوجها السـيد عصام... لكنهـا لا تجد..... لفهـا الخوف في لفافة صوف حارة جدا...وتتذكر ما قال لها عند آخر جلسـة لهما في هذا المكان.. (أنت أغلى شيء في حياتي)..

عندمـا تفكر فيه مـن زاوية أخرى.... وتلعب بها الوسـاوس.. تحسـب أنه قد مات في السـعودية أو أنه قد تزوج إمرأة أخرى هناك وتركها وأولادها دون أدنى شـعور بمسـؤوليته نحوهم.... لكنها لا تريد أن تصدق ذلك الهاجس الذي ما يفتأ أن يلف رأسها كل ساعة..

لقد تزوجها عن عشـق وكان يظهر لها حبه وتعلقه بها..ولكن هـل يمكن أنه قد انطفأ ذلك العشـــق..... ترى إنها تفـــقد شـــيئا

مهمًا في حياتها.. إنها العشـرة الطيبة والصـدق الذي تعامل به معها خلال حياتها معه...

كانـت ترى بعد زواجها منه إنها محسـودة من جميع زميلاتها وأقرانهـا من بنات الحارة..... وكانت تبـادله تـلك المشـاعر والتي ترى إنها مشاعر صادقة....

توقفت تلك الأفكار عندما أتى النادل ليسألها ماذا تشـرب فأشارت إليه أنها تريد قهوة فقط...هذه هي المرة الثالثة في جلستها تطلبه قهوة...

أخذت تنظر من النافذة التي بجانبها إلى الأمطار التي تتساقط خارج الملهى بغزارة.... كانت تتمنى أن يسـتمر هطول المطر.... إنهـا ترى حبات البرد التي تسـقط مع المطر إنهـا تجلدها....وهي تسـتلذ بذلك....ثم تنظر إلى ذلك الرجل الذي أوقف سيارته على طرف الطريق..... ثم يفتح باب سـيارته ثم يغلقه...ولا يسـتطيع أن يتـرجل من سـيارته من غزارة المطر..

كان منظـرًا رائعًـا.... هطـول الأمطار بغزاره على الأشـجار المجـاورة للملهى..... أخيـرا خرج ذلك الرجل من سـيارته....

واتجـه إلى البيت المجاور.... لكنـه لم يصل إلى البيت حتى أتت سيارة..مسرعة وقذفت عليه من المياه التي كانت تسيل من الطريق عليه.... فبللت ملابســـه وهو يلتفت ويقذف الســـيارة بالحجارة ويقذف ســـائقها بكلمات تعـتقد إنها انتـقامية فهي لا تمـيزها من داخـل الملهى وإنما تسمع صراخًا...

تذكـرت المرة الأولى التـي قابلت عصـام هنا...عندما كانت مرتبكـة.. حتى أنهـا كادت تعود من منتصـف الطريق قبل الوصول إليـه... ثـم وصلـت متأخـرة... فوجـدته مبتســـما....وقد كانت تعـــتقد أنها قد تجـده منزعجًا لتأخرهـا عـن الموعد.....وعندما جلســت كانت مرتبكة في بداية الجلسـة.... ورغم أنها أخذت على مقابلات العملاء في المكتب الذي تعمل فيه وفي الذهاب معهم إلى المناطق الســياحية كدلـــيلة ســياحية..... لكنها هذه المرة ترى أن هذا العميل من نوع آخر..... و ترى إنها في هذه الجلسـة قد ترسـم لها خارطة طريق جديدة لا تدري كيف تكون نهايتها في حياتها...

كانـت ترى أنه يركـز عينيه عليهـا وكأنه لا يعرف النسـاء من قبل...ممـا حـدى بهـا أن ترخي نظرهـا إلى الأرض كلمـا رأته إنه

يركز عيناه عليها..... كانت.... تستمع إليه وهو يصف لها الحالة المادية التي يعيشها والأموال التي تدخل حسابه كل شهر.. وكذلك مغامراته التجارية... لكنها بغض النظر عن ثراه إلا إنه بوسامته وصدق حديثه لها.. أحبته وبادلته شعور الحب الصادق و الطمأنينة النفسية..

وكانت ترى أن الله قد يكون اختار لها هذا الرجل لتبدأ حياتها السعيدة معه.....

لكن الزمن استدار وهاهي السنة الثالثة قد أطلّت ولم يحضر وانقطع اتصاله بها ولم يرسل لها أي مبلغ....ولا تعرف أي أرض حملته فأين تذهب وكل المبلغ الذي تركه معها قد أوشك على النفاد.....

(١٠)

انتظرت السيدة فريال زوجها فترةً طويلة.. وقالت لنفسها لابد أنه لم يكن ينقطع عنها وأولادها بهذا الشكل إلا لسبب كبير جدًا... وزاد قلقها وأوهامها عليه.

ذهبت إلى والدها الشيخ أديب وطلبت منه أن يتصل به تلفونيًا ولكن جواب التلفون في كل مرة كان: عفوًا إن الرقم الذي طلبت غير موجود في الخدمة مؤقتًا.

وعلى ذلك فقد حسب الشيخ أن هذه الحالة ربما تكون مؤقتة أيضًا ولم ييأس ولكن الأيام تمر بسرعة وأخبار صهره لم يعد لها أثر.... زد على ذلك كثرة التساؤلات عنه من ابنته وأطفالها.

وتمضي الأيام ولا عنه لا خبر ولا رسالة ولا تلفون مما زاد من قلق تلك العائلة عليه... كما زادهم همًا أن أجار الشقة قد أقترب موعده ولم تملك السيدة فريال المبلغ الذي يطلبه صاحب العمارة لذلك مما جعلها تطلب من أبيها أن يسافر إلى السعودية ليقف على حقيقة الأمر.

سافر الشيخ أديب وسكن في أحد فنادق جدة وبعد أن استراح به قليلا أستأجر سيارة تاكسي وذهب إلى منزل السيد عصام أبو دف وأنزله صاحب التاكسي أمامه وانصرف.... قرع جرس البوابة فخرج إليه شابًا لم يعرفه من قبل..

- أليس هذا منزل عصام أبو دف؟
- كان منزل عصام أبو دف، ثم باعه.
- ألا تعرف منزله الذي انتقل إليه!!
- لا أعرفه.
- شكرًا.

وانصرف ومن سوء الطالع أن هذا المنزل في حي من الأحياء الجديدة.....الشيء الذي جعله يمشي مسافة طويلة ليصل إلى الشارع العام لكي يستطيع أن يعثر على تاكسي ليذهب به إلى المؤسسة...

ولم يصل إلى الشارع العام إلا بعد أن أخذ منه الجهد والتعب كل مأخذ...سيما وأنه في وقت الظهيرة والحرّ يعصر كل أخضر

ويابس فاستوقف سيارة تاكسي ورمى نفسه بها دون شعور... وطلب من السائق أن يوصله إلى البغدادية..... وبعد أن وصل إليها نزل من السيارة وأخذ يقلب عينيه في الشارع يبحث عن اللوحة المعتادة والتي كانت تزين نصف الشارع (مؤسسة عصام أبو دف) فلم يجدها.....، بل وجد مكانها لوحة أخرى وإذا مكان المؤسسة قد تحول إلى بقالة فسأل حلاق كان بجانب المؤسسة..

- ألم تكن هنا مؤسسة عصام أبو دف؟
- كانت..
- والآن.
- لقد فلست المؤسسة.
- وصاحبها. أين هو؟
- في السجن ـ أجارك الله.
- لماذا يا ولدي؟
- نصّاب.

عندئـذ لم تحمل الشـيخ قدمـاه فجلس عنـد الحلاق وهو لا يلوي على شيء.

- نصاب. كيف؟

- يعني كل شـيء لم يكـن ملكه....بل كان مأجـورًا وأخيرًا انكشف.

- وأين تلك المؤسسات والأموال؟

- أخيرًا صار مديون ـ كفانا الله وإياك.

- هل تعرف أحدًا من أقاربه؟

- لا أعرف أحدًا.

ثم غادر الشـيخ أديب صالـون الحلاقة لا يـدري أين يذهب فجلس في طرف الشارع قليلًا وأومأ لسيارة أجرة أخذته إلى الفندق وهناك أخذ يضرب أخماسًا بأسداس ماذا سيقول لابنته؟؟

- وكيف سينقل لها ذلك الخبر؟

- ماذا ستكون ردة الفعل تجاه ذلك؟

- ماذا سيقول لجيرانه وأقاربه؟
- كيف ينقل لهم الخبر؟
- كيف سيكون واقع المصيبة على ابنته وأطفالها؟
- كيف ستعيش ابنته الآن؟

كل هذه الأسئلة لا يجد لها جوابًا..... بل يرى طريقًا أمامه مظلمًا ليس فيه أي بصيص من ضوء يترقبه أو فرج يرجوه..... ولم يكن أمام الشيخ أديب إلا أن يواجه ذلك الموقف مهما كانت النتيجة التي سوف يصل إليها.

سأل عن موعد زيارة السجناء فأرشده بعض العاملين في الفندق أنها في الساعة الثالثة عصرًا فتوجه إلى هناك وقابل صهره من خلف القضبان.

- كيف حالك يا بني!
- كما ترى يا عمي.
- زوجتك وأولادك بحاجة إليك وبحاجة إلى مصروف

وإلى أجار الشقة وصاحب العمارة يريد أجارًا.

- عن قريب سوف أخرج من هنا بإذن الله وسوف أدفع لها أجار الشقة وأرسل إليها فلوس بإذن الله.

- كم هي المدة المحكوم عليك بها.؟

- فترة بسيطة إن شاء الله....وقد تقدمت إلى محكمة التمييز بطلب تخفيض الحكم.

- ما هي قضيتك يا ولدي؟

- مشكلة عملها أحد العاملين مع صاحب العمارة التي كان يشيدها له.

- ذهبت إلى المنزل... فقال لي بعض الشباب الّذين وجدتهم هناك أنك قد بعته.

- نعم لقد بعت البيت لأن المؤسسة قد سرقوها بعض العاملين الّذين كنت قد أمنتهم على أعمالي التجارية.....وقد بعت المنزل لتسديد تلك الديون.

- ألـم تكـن لديـك محـلات تجاريـة وورش وتسـتطيع التســـديد عن طريقها.؟

- كانت مديونة أيضًا.

- ألا تستطيع أن تدبر لى ما أعطيه لزوجتك؟.

- مـن أين وأنت تراني هنا. لكن ادفع لهم من عندك وسـوف أقوم بتسـديدك عند خروجي من السـجن وكما قلت لك لن يطول سـجني بإذن الله....فأنا بريء وقـد رفعت تظّلم في محكوميتي إلى محكمة التمييز.

ثم انصرف الشـيخ أديب من زيارتـه لصهره والتي لم يحصل منها إلا على كذب لا يدخل الجيوب..... بل زاده همًا آخر... فهو يعرف أن ما قاله له مجموعة أكاذيب..... وأنه لن يخرج من السجن قريبًا كما وعده....، إلّا أنه قرر أن يزوره مرة أخرى ويطلب منه أن يرسله إلى أحد أصدقائه أو أقاربه ليدفع له ما يمكن أن يعود به إلى ابنته وأطفالها أو ما يســـدد به صاحب الشـقة التي تسـكنها....أو شيء من هذا..يساعد ابنته.ويطفىء به فضول بعض الجيران الّذين

سوف يجدون ما يشمتون به من الشيخ أديب.. بعد أن كان الجميع يحسده على ذلك البذخ والرفاهية مع صهره..... ذلك النجم الذي أفل في فترة بسيطة.

وفي اليوم التالي ذهب الشيخ أديب إلى بوابة السجن فلم يسمح له بالدخول حيث أن ذلك اليوم كان مخصصًا لزيارة النساء.... فعاد إلى الفندق على أن يذهب للزيارة في اليوم التالي..... فذهب وسجل اسمه في سجل الزائرين..... ونودي على السيد عصام أبو دف فعرف أن الزائر هو صهره فلم يخرج للزيارة....وانتظره طويلًا ثم عاد إلى موظف مكتب التسجيل فأخبره أنه لم يجد الشخص الذي جاء لزيارته فدعى باسمه مرة أخرى..... وذهب الشيخ أديب إلى المكان المعتاد لمقابلة السجناء لزائريهم..فلم يجده وانتظره بعض الوقت فلم يخرج...مما حدى به إلى العودة إلى الفندق.....وأيقن أنه قد تعمد عدم مقابلته.

عاد الشيخ أديب إلى الفندق ومن هناك أخذ ينظم أفكاره ويفكر في الحجج التي من الممكن أن يتعذر بها عند عودته إلى الشام. فقرر

أن يخبرهم بأن صهره مريضًا وأنه يرقد في إحدى المستشفيات وأنه في حالة سيئة جدًا..... وأخذ يسرد أعذارًا وأكاذيب نسجها من واقع الخيال حتى لا يكون الخبر بحجم المصيبة التي شاهدها ووقف شاهدًا على أحداثها..... ويكفي صدمته هو شخصيًا بذلك الأمر ولتبقى ابنته على أمل كضوء في آخر النفق المظلم الذي يرى أنه قد أُدخلت فيه ابنته وأطفالها.

❀❀❀

(١١)

عـاد الشـيخ أديب إلى دمشـق حاملًا همومه التـي لا يحملها جبـل لا يدري بماذا يواجـه الناس وخصوصًا ابنتـه فريال وجلس في بيته مسـتلقيًا على ظهره يطلب الراحة من عناء السفر والمتاعب التي تعرض لها من جراء سفره.... وجلست بجانبه أم مصطفى..

- الحمد الله على سلامتك يا أبو مصطفى.
- الله يسلمك.
- كيف صهرك إن شاء الله كل شيء تمام.؟
- إن شاء الله.
- ليش بتقولها بدون نفس.؟
- الزلمه مريض بالمستشفى يا أم مصطفى.
- أنا أقـــول لا بد أن هنـــاك أمرًا أعـــاقه عنا، لكـن شـــو مرضه يا أبو مصطفى.
- ما بعرف. لكن الزيارة له ممنوعة.

- فكرك كيف نخبر ابنتك فريال.؟
- لا بد أن نخبرها بالحقيقة.
- لكني أخاف عليها.
- لابد أن تعلم بذلك.
- هل مات الرجل.؟
- لم يمت بعد. وقد وجدته في غيبوبة. لا أدري سيفيق منها أم لا.
- الله المستعان.

عند ذلك دخلت ابنته فريال وأطفالها.... وأقبلت على أبيها تقبله وتهنئه بسلامة الوصول.

- كيفك أبي.
- الحمد لله بخير.
- كيف عصام.؟
- بخير إن شاء الله.
- ليش بتقول إن شاء الله.؟

- إنه مريض بالمستشفى.
- : شو مريض... شو مرضه يا أبي.؟
- لا أدري لم يخبرني الطبيب بذلك،
- بيقول إنه في غيبوبة.(قالت ذلك أمها).
- في غيبوبة.؟
- أي ابنتي. لكن الدكتور يقول إن شاء الله بيفيق منها.
- جلطة يا أبي.؟
- هي كذلك.
- أمسكت رأسها بين يديها وأخذت تبكي.

◆ ما عندنا مصاريف.

◆ ما عندنا إيجار الشقة.

◆ ما عندنا شيء يا أبي.

◆ ما عندنا شيء.

- بيفرجها الله يا بنتي. وأخذ الجميع يبكي معها.

- قابلت أحدًا من أقاربه يا أبي.؟
- لم أقابل أحدًا.
- ذهبت إلى بيته.؟
- لم أذهب.
- ليش يا أبي؟
- عندما رأيته بتلك الصورة لم أعد أحتمل أكثر من ذلك.....فالرجل في حالة يرثى لها.
- لماذا لم تأخذ لنا مصاريف من المؤسسة.؟
- لم يعد هناك مؤسسة يا ابنتي.
- ماذا تقصد.؟
- باعوها وسددوا بها ديونه.
- يعني ما عاد عنده شيء.؟
- عندما يفيق سوف نسأله.
- وإذا ما أفاق أبي.؟

- إلى ذاك اليوم... يفرجها الله.

- يا ميلة بختك يا فريال.

- يا بنتي توكلي على الله.

- وين بدي أروح يا أبي. وين بدي أروح.؟

- توكلي على الله. أنا سوف أدفع إيجار الشقة هذه السنة وحتى تنتهي يأتي الفرج بإذن الله.

- إنت بتدفع هذه السنة لكن اللي بعدها.؟

- من يوم ليوم يفرجها الله.

- ونعم بالله. لا حول ولا قوة إلا بالله. أبي. لو ذهبت إلى السفارة السعودية وأخبرتهم بهذا الوضع ووضع الأولاد أيضًا.

- هل عندك ما يثبت انتمائه لهم.؟

- عندي صورة من جواز سفره وكذلك قسيمة الزواج.

- هذا شيء طيب وغدًا أذهب معك إلى السفارة.

وفي اليوم التالي ذهب الشيخ أديب إلى السفارة السعودية بابنته وبعد زحام شديد وصلا إلى شباك المراجعة.

- أريد أن أثبت جنسية أولادي مع أبوهم.
- أين أبوهم؟
- في السعودية.
- هل حصل على تصريح بالزواج؟
- لا أدري.
- كيف تزوجت إذًا؟
- كما يتزوج بقية الناس.
- هل لديك أطفال منه؟
- ولد وبنتان.
- ألم يثبتهم في جواز سفره؟
- لا لم يثبتهم.
- هذا خطأك أنت أولًا.... وكان عليك أن تحرصي على ذلك.
- كان يوعدني في كل يوم أنه سيعمل ذلك مستقبلًا.
- هل لديك أي أوراق ثبوتية بذلك.

- عندي قسيمة الزواج وصورة من جواز سفره.
- باقي كثير من الأوراق المطلوبة.
- ساعدني الله يرضى عليك.
- ليس هذا في يدي.
- في يد من إذًا؟
- في يد زوجك يا أختي.
- إنه مريض وهو في غيبوبة في السعودية.
- بإمكان أقاربه إثبات انتماء الأولاد إذا رغبوا.
- إنني لم أعثر عليهم.
- ليس هذا ذنبي.
- كيف ترشدنا إذًا.؟
- لا أدري.

خرجت فريال من أمام الشباك والدموع تملأ عينيها وأبوها من خلفها فتلتقي مع بعض كبار التجار في دمشق والذي كان يعرفها أثناء عملها في مكتب السياحة.

- أبو سامر.
- أهلًا فريال.
- كيف حالك.؟
- بخير والحمد لله.ماذا أتى بك إلى هنا.؟
- الزمان يا أبو سامر.
- سمعت أنك قد تزوجت من رجل سعودي.
- لا سقى الله تلك الساعة.
- هل طلقك.؟
- لم يطلقني ولكنه نصب عليّ ولم أره منذ مدة طويلة.
- وأين هو الآن؟
- يقولون أنه مريض في السعودية.

كان أبوها يسمع كلامها هذا وكلامها مع ذلك الرجل ويقول في نفسه: آه لو تدرين يا ابنتي أنه ليس مريضًا إنه نصاب فعلًا.كان الله في عونك.

ألتفت السيد أبو سامر إلى الشيخ أديب.

- كيفك يا حجي.؟

- على ما ترى يا ابني.

- إنني أعرف فريال منذ إن كانت في مكتب السياحة.

- إذا تقدر تساعدنا بشيء الله يجزاك خير.

- كيف أساعدك؟

- إذا كنت تعرف القنصل أو السفير يضع حلًا لهذه المشكلة.

- أعرف مساعد السفير إذا كان هناك مجالًا للمساعدة فلن يبخل.

- خذنا إليه جزاك الله خيرًا.

واتجه إلى مكتب مساعد السفير وهما يمشيان خلفه ودخلوا إلى المكتب فاستقبلهم خير استقبال وقال أبو سامر:

- هذا الرجل وابنته لديهما مشكلة مع أحد الأخوة السعوديين الذي تزوج من هذه الشابة.

- ما هي قضيتك يا أختي؟

- تزوجت رجلا وأنجبت منه ولد وبنتين وحتى الآن لم يضمنا معه في جواز سفره ولم يثبت انتماء أولاده إليه..... وأخذ يذهب ويعود وأخيرًا انقطع نهائيًا.....وذهب والدي إلى هناك فوجده مريضًا في المستشفى..... والأسوأ من ذلك أنه في غيبوبة وقد تركني وأطفالي ولم يترك لنا أي مال نعيش به ولا نعرف أحدًا من أقاربه هناك.

- هل حصل على تصريح بالزواج من خارج السعودية.

- لا أدري عنه.

- الرجل على قيد الحياة.

- إنه في غيبوبة في المستشفى كما ذكرت لك.

- ما هو موقف أقاربه من أطفاله؟

- لم يلتفت منا أحدًا...ربما لا يعلمون بزواجه.....لا أدري.

- هل لديك أوراق تثبت انتمائهم له.

- صورة جواز سفره وشهادات الميلاد وعقد الزواج.

- هل شهادات الميلاد مصدقة من السفارة؟

- لا.

- كيف نساعدك إذًا؟

- ألا تكفي هذه الأوراق؟

- لا ليست كافية.

ألا يمكن أن تخدمنا بمساعدتهم. قال ذلك أبو سامر.

- الشيء الذي يمكن أن أساعدهم به أن يتم تسجيل الأطفال في دار الرعاية ونعتبرهم أيتام ويصرف للعائلة مبلغًا من المال شهريًا من الجمعية الخيرية.

- أنا أريد أن أسجلهم في السفارة وأثبت انتماءهم لأبيهم.

- هذا ليس في يدي. ولا بد من إحضار أوراق ثبوتية للأولاد عن طريق أبوهم أو أقاربهم من السعودية أما من هنا فلا يوجد لدينا أي صلاحيات في ذلك.

أخذت السيدة فريال ورقتين الأولى لدار الرعاية والأخرى للجمعية الخيرية ورضيت بذلك الفتات وعادت إلى شقتها بعد أن

أبدى السيد أبو سامر استعداده لمساعدتها وأعطاها كرتًا به عنوانه ورقم تلفونه وشكرته فريال وغادرت مع أبيها.....

واتى موعد إيجار الشقة فطلب منها صاحب العمارة أن تخرج منها أو تسدد المبلغ المطلوب..... فلم تجد ما تسدد به

مما أدى بها إلى الانتقال بأطفالها إلى شقة أبيها..... لتعيش معه كما ساعدها دخل البقالة بعض الشيء في الإنفاق على نفسها وبنيها خلال تلك الفترة.

ذهبت فريال إلى مكتب السياحة التي كانت تعمل فيه تبحث عن عمل فوجدت أن المكتب قد عين موظفة بديلة عنها واعتذر صاحب المكتب عن عدم حاجته إلى موظفة في الوقت الحاضر. إلا أنها قد استعانت بالسيد أبو سامر الذي بدوره ذهب إلى صاحب المكتب وشرح له الحالة التي وجد فيها السيدة فريال فوافق على عودتها للعمل في المكتب.....وبذلك استطاعت أن تضمن لنفسها ولأولادها عيشة كريمة بعد أن لفظها الزمان خارج بحر الحياة...

(١٢)

استطاعت السيدة فريال أن تجابه الزمن وتعيش فترة من الزمن في غياب زوجها وأن تبيع حليها وتدفع منه أجار الشقة.. وكانت تذهب بأطفالها إلى الجمعية صباحًا وتأخذهم منها بعد انتهاء الدوام.... وأحيانًا ينامون في السكن الداخلي للجمعية... كما أنها قد كانت المسؤولة عن أبيها وأمها وقامت بذلك خير قيام الشيء الذي ساعدها على الخروج من تلك الوساوس والأوهام التي وضعها فيه غياب زوجها وانقطاع أخباره.

لكن سوء الحظ لم يمهلها كثيرًا فقد توفى والدها وطلب منها صاحب العمارة أن تخلي الشقة مما جعلها تستعين ببعض الجيران وأهل الخير الذين تدخلوا بنقل عقد إيجار الشقة إلى فريال بعد رفع الإيجار بنسبة لا تقل عن ٥٠ ٪ لكن ذلك كان أرحم على تلك المسكينة من البحث عن شقة أخرى..... كما أن ابنها الذي بلغ من العمر إحدى عشرة سنة..... غدى يجلس في البقاله وتحسنت الأحوال.....

أصبح عمر البنتان إحداهن ثلاث عشرة سنة والكبرى خمس عشرة سنة....وكانت فريال تنظر إلى ابنتيها بشيء من الخوف والأمل.... الخوف في عدم حصولهما على جنسية والدهما أو الانتساب إلى عائلته...والأمل في أن الله سبحانه يرزقهما بزواج يصونهما ويعوضهما عن تعاسة الحظ وسوء الحالة المعيشية التي عاشوا فيها بعد انقطاع أبوهما....

❀❀❀

(١٣)

انقطعت أخبار السيد عصام أبو دف عن عائلته في الشام كما أن الشيخ أديب قبل موته قد اخبر ابنته بحقيقة ما وجده في جده عندما ذهب للبحث عنه فتوسلت إلى أخيها مصطفى وطلبت منه السفر إلى السعودية للسؤال عن عائلة زوجها والبحث عنه والوقوف على أي خبر قد يوصلها إليه أو عائلته....

سافر السيد مصطفى إلى جدة وهناك نزل في أحد فنادقها وبدأ يسأل عن صهره عصام أبو دف الذي لم يجد له أثرًا في مدينة جدة فما كان منه إلا أن توجه إلى المستشفيات فلم يجد عندهم لهذا الاسم أي خبر أيضًا.

فتوجه إلى وزارة التجارة للحصول على عنوان المؤسسة، وهناك شرح قصته لأحد الموظفين فأخذه إلى قسم السجل التجاري يبحث له عن تلك المؤسسة.:

- قلت لي بأنه صهرك أليس كذلك.؟

- نعم.

- لقد كانت مؤسسته في حي البغدادية.
- وأين هي الآن؟
- لا أدري ربما انتقلت أو.....
- أو ماذا؟
- ربما قد أوقف نشاطها لأنها لم تجدد اشتراكها منذ فترة.
- أريد منك عنوانها الذي كانت فيه.
- هـذا ممكن. وأخذ ورقة وكتب عنوان المؤسسـة فشـكره السـيد مصطفى وخرج. ومن هناك اسـتقل تاكسي وأعطى السائق العنـوان ولكنه لم يجد المؤسسـة عندما وصل إلـى مكان العنوان الذي معه....فأخذ يسأل عنها في ذلك الشارع.

دخل إلى دكان كان في طرف الشارع وسأله عن تلك المؤسسة وأخرج له تلك الورقة التي حصل عليها من فرع وزارة التجارة.

- أوه.... لقد أقفلت منذ فترة.
- لماذا أقفلت؟
- وجدوا صاحبها نصاب ومتستر.

- وأين هو الآن؟
- كنت أعرف إنه في السجن.
- وأين هو الآن؟
- لا أدري.
- تعرف بيته؟.
- لا. لا أعرفه.
- أليس لديه محلات تجارية ومقاولات؟
- كانت كلها كلام فاضي.
- تقصد إنه لم يكن لديه شيء.؟
- نعم.. هذا صحيح.

خرج مصطفى من عنده.... بفائدة واحدة أن صهره في السجن فركب سيارة أخرى وطلب من سائقها أن يوصله إلى السجن.. وكانت الساعة حوالي الواحدة والنصف ظهرًا..... لكنه وجد جندي أمام بوابة السجن... فأخبره بأن موعد الزيارة هو الساعة الثالثة عصرًا.....فما كان منه إلا أن أنتظر قريبًا منه حتى جاء

موعد الزيارة فدخل وسجل اسم الشخص الذي جاء يزوره فأخبر بأنه قد خرج قبل شهرين من السجن...فخرج من هناك قانطًا لا يلوي على شيء..... وعاد إلى الفندق.

وفي اليوم التالي لم يترك قسمًا من أقسام الشرطة إلا وسأل عنه وأخيرًا تقدم بشكوى ضده إلى إمارة منطقة مكة المكرمة وشرح فيها الوضع الذي جاء من أجله وعن صهره الذي ترك أولاده وزوجته منذ فترة طويلة في الشام دون وازع من ضميره أو مسؤولية تشعره بحقوقهم عليه..... وأحيلت المعاملة إلى أقسام الشرطة للبحث عنه.....وأخيرًا تم الاهتداء إلى عنوان الشخص الذي كفله عند خروجه من السجن...وأُحضر، وعن طريقه تم إحضار السيد عصام أبو دف.

❀❀❀

(١٤)

دخل عصـام أبو دف إلى مكتب ضابط الشـرطة ليجد صهره السـيد مصطفى أمامه فيرحب به ترحيبًا باردًا ويجلس بجانبه.....

ثم يلتفت الضابط إلى السيد مصطفى ويسأله:

- هذا صهرك.
- نعم يا حضرة الضابط.
- تعرف هذا يا سيد عصام؟
- نعم أعرفه. إنه أخو زوجتي.
- وأين زوجتك؟
- هي في الشام.
- منذ متى تزوجتها؟
- منذ زمن.
- منذ متى لم تراها؟
- منذ دخولي السجن.

- منذ متى خرجت من السجن؟
- منذ شهرين تقريبًا.
- ألم تسافر لتراها أو ترسل لها مصاريف؟
- إنني مفلس الآن.
- هل لديك منها أطفال؟
- ثلاثة.
- ومن أين يعيشون؟
- لا أدري.
- صهرك هذا يطالب بنفقة لأخته وأولادها منذ غيابك.
- ليس عندي شيء.
- هذا ليس ذنبهم.
- وليس ذنبي أنا.
- ما الذي عندك تعطيهم الآن.؟
- إنني بحاجة لمن يعطيني.

- أين تسكن الآن؟

- في حي القريات بجدة.

- لا بد أن تعطي أولادك وزوجتك مبلغًا من المال حتى تتدبر أمرك.

- ليس لدي شيء الآن ولكنني سوف أرسل لهم مبلغًا عن ما قريب.

- ما الذي تراه يا سيد مصطفى في كلام صهرك؟.

- إنني أطالبه بنفقة خمس سنوات كما إن اعترافه أمامك الآن يفسح المجال لإكمال إجراءات أولاده وإدخالهم إلى السعودية أما أختي فإذا لم يرغب فيها فعليه أن يطلقها.

- إنني أسكن بالإيجار في شقة ثلاث غرف صغيرة وعائلتي كبيرة ولا أستطيع أن أسكنهم معي.

- إنهم أولادك يا رجل فاتق الله. قال ذلك الضابط.

- إنني عاجز عن القيام بواجبهم.

- يا رجل هم يريدون أن تضمهم إلى عائلتك بين أهلهم

وذويهم ثم رزقهم على الله بعد ذلك. قال ذلك السيد مصطفى.

- أنا سوف أقوم بذلك ولكن ليس الآن.

- إن بنتاك قد أصبحتا في سن الزواج وابنك قد كبر أيضًا ومن المفروض أن تكون مشرفًا عليهم طالما أنهم في هذا السن وأن تحافظ عليهم من الضياع.

- هناك أمهم سوف تقوم بالواجب.

- أمهم لا تستطيع أن تضمهم إلى جنسيتك. قال ذلك مصطفى.

- هذا واجبك وواجبنا جميعًا وأنا سوف أسجل هذه المقابلة وأرسلها إلى الأمارة لاتخاذ اللازم بحقك فأنت ملزم بإكمال إجراءات جنسيتهم وإعادتهم إلى ذويهم. قال ذلك الضابط.

- هناك أهلهم أيضًا.

- لكنك أنت الملزم بهم وعليك أن تتحمل مسؤوليتك تجاههم.

- أنا سوف أبحث عن عمل أحصل منه على دخل أولًا.. نعم إنني الآن أبحث عن عمل... لكي يكون لدي ما أعطيهم ثم أذهب بعدها إلى الشام.

- إذا أنهيت إجراءات الجنسية فسوف أخدمك أنا في بقية الأمور بدمشق. قال ذلك مصطفى.

ثم ألتفت الضابط إليه وقال:

- هذا صهرك يريد مساعدتك ولكنك لا ترغب إلّا في التنصل من واجبك ولكنني سوف أحيلك إلى النظارة حتى تنظر الأمارة في وضعك..... ثم ألتفت عصام إلى صهره وقال:

- أنت من أراد لي هذا المكان لكنني سوف أعرف كيف أتعبك حقًا ثم خرج مصطفى من عند الضابط بدون نتيجة سوى أنه قد وجد ذلك المجهول الذي يبحث عنه....

وفي اليوم التالي ذهب مصطفى إلى قسم الشرطة ليجد أن صهره قد أطلق بكفالة بعد أن كتب تعهدًا ولم يره بعدها..

وبرغم مراجعته لإدارة الشرطة أكثر من خمسة عشر يومًا لم يقابله.....مما جعله يتقدم بطلب آخر إلى الأمارة يشرح فيه ما حدث من أمر صهره أمام الشرطة.... ويطلب من الأمارة إعطاءه ما يثبت انتساب أطفال السيد عصام له من واقع ما دونه بنفسه في

سجلات الشرطة..... إلّا أن الموضوع أخذ وقتًا فما كان منه إلا أن وكل وكيلا ينوب عنه في متابعة هذا الأمر وطلب منه أن يخبره بنتيجة التحقيق وأن يرسل النتيجة إلى السفارة السعودية بدمشق أو عن طريق عنوانه وترك لهم عنوانه ورقم تلفونه وغادر جدة... متجهًا إلى دمشق ناقمًا على جدة وأهلها الذين أصبح يحسبهم كلهم عصام أبو دف....ممتلئًا غيظًا وحنقًا على صهره الذي لم يجد عنده إلّا ما يسؤ....بل كان لئيمًا بكل ما تعنيه تلك الكلمة تجاهه هو وأخته وأطفاله.....و ظهر له أن سوف يضحي بهم أو سيتركهم وكأنهم من عامة الناس لا يمتّون إليه بأي صلة.

وبقي يتابع معاملته تلك بكتابات إلحاقية لقسم الشرطة الذي ترك فيه معاملته وعن طريق الوكيل الذي أقامه فلم يفلح في الحصول على شيء سوى تلك التعهدات التي يكتبها السيد عصام أبو دف في إدارة الشرطة....إنه سوف يذهب إلى دمشق لإكمال إجراءات ضمهم إلى عائلته.

❀❀❀

(١٥)

عـاد السـيد مصطفى مـن جدة فتوجـه إلى بيـت أخته يحمل علـى قلبه همومًا لا يريـد أن يثقله حملها أكثر مـن ذلك....فأخبر أخته بكامل القصة التي بدورها تقدمت في اليوم التالي إلى السفارة السـعودية بطلب النفقة وطلب إثبات جنسـية أولادها.... وطلبت صـورة من أوراق التحقيق مع زوجها في شـرطة جدة.... أملا منها أن ذلـك سـوف يسـاعدها في إثبات جنسـية أولادهـا... واعتراف أبوهـم بذلـك في أوراق التحقيق.....وأخـذت في زيارة السـفارة كل أسـبوع مرة أو مرتين كما أصبحت تتعرض لبعض السـعوديين الّذين تتوسـم فيهم الخير بطلب المساعدة في زواج ابنتيها من أبناء بلدهن لكنها لا تجد أي آذان صاغية لذلك.

أصبـح فـراس يقـوم بتشـغيل البقالـة لوحـده وتـدرب على الأعمال التجارية حتى مهر فيها.

❀❀❀

(١٦)

كبرت سميرة وسمر وتعدت الكبرى سميرة السابعة عشرة عمرها وكذلك سمر التي تصغرها بسنتين وحيث أنها لم تكن مكتملة إجراءات جنسيتها النظامية فقد درست إلى مستوى المرحلة المتوسطة فقط في دار الرعاية التي تشرف عليها السفارة السعودية وانقطعتا عن الدراسة.وعملت سميرة بعد ذلك في مطعم رجل يهودي بدمشق واستمرت فيه لأكثر من سنة وكبرت أختها فأقنعت ذلك اليهودي بأن يساعدها بتشغيل اختها معها في المطعم فوافق.

وعملت هي وأختها في مطعم السيد فريد في أحد أحياء دمشق..

وفي يوم من الأيام خرجت سمر وسميرة إلى عملهما في الصباح فلم يعودا.....و تأخرا عن الوقت المعتاد الرجوع فيه إلى الشقة. فذهب فراس إلى المطعم فقال له صاحب المطعم إنهما لم يذهبا إلى العمل في ذلك اليوم..

بقيت فريال وابنها فراس ينتظران عودتهما حتى بعد منتصف الليل فلم يعودا مما أدى بالشاب فراس إلى التوجه إلى قسم الشرطة ليقدم بلاغ عن أختيه ويطلب البحث عنهما.

ومضى على ذلك أكثر من أسبوع وبعدها اتصلت سميرة بأمها وأخبرتها من قبرص إنهما بخير وطلبت من أمها عدم الانزعاج وأنهما قد حصلا على جنسية عراقية وفي حالة الانتهاء من العمل المتعاقد عليه معهما سوف تعودان إلى سوريا.

كانت تلك الواقعة على السيدة فريال أكبر من مصيبتها في الأخبار التي أحضرها أخوها مصطفى عند عودته من السعودية.... ولكن الأمر قد خرج من يدها.....ولم يعد أمامها سوى التسليم للأمر الواقع فاتفقت مع ابنها أنهما يخفيان هذا الأمر عن كل من يعرفهم في الحارة وأن يبقى هذا الأمر سرًا وعليهما أن يجدا عذرًا بأن البنتين قد انتقلتا للعمل في إحدى الفنادق في مدينة أخرى.

استمر السيد عصام أبو دف في الاختفاء عن السلطات حتى استطاع ذلك الضابط الذي قابله مع صهره مصطفى بعد استدعائه إلى قسم الشرطة عدة مرات أن يقنعه بأن عليه أن يسافر إلى أولاده ومن ثم إكمال إجراءات ضمهم إلى جنسيته وأخذ عليه تعهدًا بحضور بعض أقاربه الذين لم يكن لهم أي خبر بهذا الأمر من قبل مما أدى إلى تحمسهم للفكرة وتشديد اللوم على السيد عصام في السفر إلى دمشق وعودته بعائلته إلى جدة.

(١٧)

كانــت فريال لا تــنقطع عن المــلهى الذي كان يأخــذها زوجها إليه.

ذات يـوم ذهبـت إلـى الملهـى بعـد أن انتهـى عملهـا في المكتب..... كان الملهـى هادئا والحضور قليلًا جدًا فلم يحضر الزبائـن بعد.....فجلسـت في زاوية بعيدة.... وطلبت عشـاء..... كان النـادل يحضر إلـى الطاولة أصناف كثيرة مـن الفاكهة... دون أن تطلبها...وعندمـا حاولت أن تعيـد بعضها قال إن هذه الطلبات لابد أن تنزل على طاولة الزبون....وهذا موسـم الصيف ولابد أن يستفيد المقهى من الزبائن وهذه مسجلة على كل الطاولات...

لكنهـا بعد جدل طويل أجبرته على إعادة أكثر من نصفها بعد أن هددته بالاتصال بالشـرطة.... كان أمامها في طاولة أخرى رجل وامرأة يتناجـيان ويتناولان عشـاءهما في سـعادة غامرة...كانت هذه المرأة تشبه ابنتها سمر وكانت فيروز تغني بصوت دافي:

طلع لي البكي ونحنا قاعدين...لآخر مرة سوى وساكتين

في عيـــونك حنين..... وبســكوتك حنـين..... لو بعرف حبيـــبي حبـــيبي بتـــفكر في مين

أغـــرورقت عيـــناها بالدموع.... ثم أجهشـــت بالـبكاء فجأة دون شعور....

لم يعد يسـعها الملهى.....فأخذت تنتقـل من مكان إلى آخر فلم تسـتطع أن تصرف نظرها عن تلك الصبية التي تشبه ابنتها ولم تستطع أن تخرج من الأفكار التي تدور برأسها..... فتركت الملهى وخرجت.. بعد عودتها إلى الشـقة أخذتها الأفكار إلى بنتيها اللتين لا تعرف لهما خبرا.....أين ذهبتا.....؟

❀❀❀

(١٨)

وصل عصام أبو دف إلى دمشق بعد ضغط من إدارة شرطة منطقة مكة المكرمة على المذكور بإصلاح أوضاع عائلته التي تركها هناك وتخليه وتفريطه فيهم لفترة طويلة.

ونزل في أحد الفنادق ومن هناك ركب في سيارة تاكسي إلى الشقة التي كان يسكنها وسأل عن زوجته وأولاده فلم يجدهم بل وجد أخبارًا غير سارة حولهم فمن قال:

- أنهم قد سافروا إلى السعودية.
- إنهم في دار رعاية الأيتام.
- إنهم في بيت والد فريال.

فقرر الأخذ بالرأي الأخير والذهاب إلى شقة صهره الشيخ أديب فلم يجد بها أحدًا...حيث أن زوجته كانت في مكتب السياحة، أما ابنه السيد فراس فقد كان يعمل في بقالته التي كانت لأمه سابقًا.

تحول عصام من الشقة إلى البقالة فوجد فيها ذلك الشاب فلم يعرفه فقال له:

- كان يسكن في الشقة رقم (٣) شخص يدعى الشيخ أديب.
- وماذا تريد منه؟
- أريد مقابلته.
- يوم القيامة بإذن الله. ولكن أين تعرفه؟
- أعرفه منذ زمن، أريد أن أرى ابنته فريال.
- هل تعرفها؟
- نعم أعرفها.

فأدرك الشاب أن هذا قد يكون من طرف والده.

- ما اسمك؟
- عصام أبو دف.
- عصام أبو دف!!!!
- زوج السيدة فريال.

عند ذلك أدرك الشاب أنه أبوه وأن عليه أن يتصرف بكل حكمة وعليه استشارة أمه فيما يجب أن يفعله.

- إذا أتيت في الغد سوف تكون هنا بانتظارك.

- أتعرفها أنت؟

- نعم إنها جارتنا وسوف أخبرها بذلك.

- شكرًا جزيلًا.

وانصرف من عنده وذهب إلى الفندق مرة أخرى،

مـا إن ذهب أبوه من عنـده حتى أقفل فراس دكانه وذهب إلى أمه وأخبرها بما حصل فاتصلت تلفونيًا بالسـيد أبو سـامر وطلبت مقابلته وأخبرته بما حصل وأشار عليها.

- إن ابنك في حاجة ماسة إلى جنسية أبيه، وإذا طلبت منه أي طلبـات جديدة فسـوف يذهب ولن يعود مرة أخـرى ولكن عليك بالتروي والحكمة حتى إنهاء وضع ابنك.

- إنني أكره الأرض التي يمشي عليها.

- قد يكون ذلك...ولكن ليس من الحكمة مجابهته الآن.

- وأخي مصطفى.

- أرى أن لا يدخل في الموضوع الآن.

- ما هو رأيك أنت؟

- أرى أن يذهب معك أنت وابنه إلى السفارة السعودية غدًا ثم يقدم لكما الأوراق المطلوبة ومن ثم يتابع إجراءاتها في السفارة.

- وإذا رفض ذلك.

- عندئذ عليك أن تتقدمي إلى البوليس لإلقاء القبض عليه وطلب النفقة ومن ثم إنهاء إجراءات الطلاق إن كنت لا تريدينه حقًا.

- إنني أرى أنه لم يأت إلينا إلا بلعبة جديدة.

- لن تكون مقبولة هذه المرة وعليك أن تكوني حريصة.

اقتنعت بما قاله لها أبو سامر وعادت مع ابنها في نهاية الدوام إلى الشقة وأخذت تناقش ابنها في موضوع البنات.

- ماذا سأقول لأبي إذا سألني عن أخوتي.... (قال ذلك فراس)؟

- لا أدري.

- ما رأيك لو قلت أنهما ماتا.

- وأين شهادة الوفاة؟

- إذًا يدرسان في الخارج.
- وأين المكان الذي ستكونان فيه؟
- في كندا.
- لن يصدق ذلك.
- ليس معه غير ذلك.
- قد يكون ذلك أقرب الحلول.
- إذًا على ذلك اتفقنا.

وباتت السيدة فريال في هموم وكوابيس ليلتها تلك فهي لم تعد تحتمل أكثر من ما حصل لها من جراء زواجها منه. فهي تعتبر ثكلى للبنتين اللتان لم تعد تعرف لهما خبرًا..... وتعلم. أيضًا حق العلم أنها لن تراهما إلى أخر العمر.

كما أنها تعتبر أرملة لزوج لم يمت بعد بل تركها وحدها تقابل تلك المشاكل والمحن دون هوادة... فهي لم تعد تحتمل أكثر من ذلك.

إن همها الباقي هو حصول ابنها على جنسية أبيه ثم يفعل الله

بهـا ما يشـاء..... وهي عند ذلك إما أن تقاضـي زوجها ذلك الذي هو سبب كل ما حصل لها.... أو تتركه يذهب عنها إلى غير رجعة.

وفي اليوم التالي:

كان فـراس وأمـه في انتظار السـيد عصـام أبـو دف في البقالة فحضـر إليهما في الموعد المحدد وكان السـلام باردًا والاسـتقبال أبرد منه..

- كيف أنت يا أم فراس.
- كما ترى والحمد لله على كل حال.
- كيفك يا ولدي.
- أخيرًا اعترفت بأنني ولدك يا أبي.
- لم أنكرك قط.
- كنت أتمـنى أن تكون قد أنهيت أمري منذ زمن. فأنا ضائع لا أدري أين أذهب.
- كيف سمر وسميرة.
- إنهما بخير.

- وأين هما الآن.

- إنهما خارج سوريا للدراسة.

- أين سافرا.

- إلى كندا.

- وكيف تركتيهما يذهبان إلى هناك.

- كانت فرصة للدراسة تتمناها أي بنت وسافرتا بعد أن يئستا من رجوعك.

- وكيف طاوعتهن للسفر وأنت تعلمين خطورة هذا الخطوة التي أقدما عليها.

- إنني أعرفهما فهما محل ثقتي.

- بل محل تقصيرك..

- ..... سكتت قليلا ثم قالت:. الله يسامحك.

- كنت أحسبك أكثر حرصًا عليهما.

- وأين أنت منهم؟

- أنا قد رمتني الأقدار في غياهب السجون.

- وبعد السجن. لماذا لا تسأل عنا؟

- لم يكن بيدي شيء وأنا أعرف أنكم في أشد الحاجة ولكن العين بصيرة واليد قصيرة.

- ربما قصيرة عنا فقط أما زوجتك الأولى وأولادك فلم تكن قصيرة.

- إن التقصير فوق مستواهم أيضًا.

- على الأقل يعيشون بين أهلهم وذويهم.

ثم تدخل عند ذلك فراس وطلب منهما أن يكملا ذلك النقاش في الشقة وأخذهما وصعد إلى الشقة فإذا هي شقة صهره الشيخ أديب التي خطب منها فريال.

- رحمك الله يا أبو مصطفى.

- شيء طيب إنك لازلت تذكره بخير.

- إنني أذكره بخير ولم يمنعني عنكم سوى الشديد القوي والدنيا هكذا فقر وغنى.

- إنني لم أسأل عن الفقر والغنى.

- إذًا عن ماذا تسألين؟

- أسأل عن نفسي عن عمري الذي ضاع عن ولدي وعن البنتين اللتين لا أدري عن حياتهما الآن فقد انقطعت أخبارهما منذ فترة.

- هذا ذنبك وليس ذنبي.

- بـــل ذنبك أنت. لـو كان وضعنا صحيحًا لنقلت أولادي بين أهلهم عندما دخلت أنت السجن.

- من قال لك هذا؟

- هـذه الحقـــيقة. لكنك تركتـــنا غرباء في بلدنـا..... متزوجـة ولســت متزوجـة، أولادي لهم أب وليس لهـم أب، لهم وطن وليس لهم..... إنه الضياع بعينه.

- كان ذلك غصبًا عني.

- بل كنت أحثك على هذا الأمر قبل دخولك السجن لكنك كنت تظهر لي كبرياء غريبة حتى حسبتك من علية القوم.

- هذا الكلام لا يجـدي الآن فاقصري عن هذا العتاب. هذا يكفي.

- أريدك أن تذهب معي أنا وفراس إلى السفارة الآن.
- في الغد سيكون ذلك.
- ولماذا لا يكون الآن؟
- إن الدوام يوشك على نهايته الآن.
- إذًا من الغد سنكون هناك.
- بإذن الله.

وفي اليوم التالي تقدم السيد عصام أبو دف بطلب إلى السفير السعودي في دمشق يطلب فيه إضافة زوجته وأطفاله الثلاثة إلى جواز سفره وبعد استكمال أوراقه الثبوتية وافق السفير على إرسال كافة الأوراق إلى الرياض لإكمال الإجراءات المتضمنة لذلك.

بقي السيد عصام أبو دف مع زوجته وابنه وكان يحاول جاهدًا أن يعوضهما عن بعض التقصير الذي حصل بحقهما خلال فترة غيابه عنهما وبعد شهر تقريبًا من إرسال البيانات إلى الرياض عادت المعاملة بالموافقة وتم ضمهم إلى جنسية أبيهم عصام أبو دف.

وأصبح الابن فراس يملك جواز سفر سعودي منفردًا

وكذلك أمه التي لم تكن ترغب في السفر من سوريا أملًا منها في أن رقم الهاتف سيجلب لها يومًا من الأيام اتصالًا من بنتاها اللتان انقطعت أخبارهما منذ فترة... والتي تم إضافة اسميهما إلى جواز سفر والدتهما فريال.

طلب فراس من أبيه أن يصطحبه معه إلى جدة ليتعرف على ذويه وأقاربه في المملكة العربية السعودية ومن ثم يبحث له عن عمل هناك..... أصبح عمره سبع عشرة سنة..

وسافر السيد عصام أبو دف إلى جدة بصحبة ابنه فراس الذي كان متصورًا في مخيلته أن يدخل به أبوه في قصر فيه من الفخامة والأبهة الشيء الكثير.....وكم كانت صدمته كبيرة عندما وصل إلى الشقة التي يسكن بها أبوه مع أخوته وزوجة أبيه.

- هذه عمتك.... وهذا أخوك.... وأخوك.. وأختك.... وأختك.. الخ..

سلم فراس عل الجميع وجلس بجانب أبيه وسأله أحد أخوانه..

- أين البنات؟
- يدرسن خارج سوريا.
- في أي بلد؟
- في كندا.
- ماذا يدرسن؟
- يدرسن الطب.
- يعني: أختي دكتورة يا أبي. قالت ذلك البنت.الصغرى
- نعم ستكون دكتورة بإذن الله.
- ليتك تعلمين أين أختي. قال ذلك في نفسه فراس.
- هل هن كبيرات يا أبي؟
- طبعًـا ما دامت تدرس الطب فهي كبيـرة. قال ذلك أخوها طلال.
- لكن أين تسكن؟
- هناك سكن للطالبات. قال ذلك فراس.

- الله يوفقهم.

بعد فترة من وصولهما إلى جده....سأل السيد عصام أبو دف ابنه فراس..

- يا فراس يا ابني منذ أن قابلتك وأمك لم يصل أي خبر عن أختيك وعن دراستهما.

- إنهما طالبتان والتلفون يكلف كثيرًا ولكن هناك رسائل تصل إلى الشام باستمرار.

- هل لديهما عنوان.....هل بإمكاننا أن نكتب لهما رسائل.

- نعم هناك عنوان ورقم تلفون وكل فترة تصل رسائل منهما وهما بخير.

- لا بد أن اكتب إليهما.

- هذا لا يمنع أن تكتب رسالة وترسلها إلى أمي في الشام وهي تقوم ببعثها من هناك على العنوان الموجود لديها.

(١٩)

أخذ فراس ينزل إلى السوق كل يوم يبحث عن عمل في المحلات التجارية الموجودة في الشارع الذي يسكن به والده وقد عمل جاهدًا أن يجد له وظيفة في الشركات والمؤسسات فلم يفلح.....مما جعله يبحث عن عمل يقوم به بمفرده ومن ثم يعتمد على نفسه ويساعد والدته في دمشق....ووجد أن الشارع الذي يسكن به والده لم يكن به بوفية.....فقرر أن يفتح محلًا للبوفيه والفلافل.....

وفعلًا وجد دكانًا خاليًا فاستأجره وساعده والده وبدأ العمل به.

واستمر في عمله وفتح الله له أبواب الرزق واعتمد على نفسه وأصبح يرسل مصروفًا شهريًا لأمه في الشام كما أستأجر شقة خاصة به.

وبدأ يساعد أبوه وأخوته في مصاريف البيت بعد أن أصبح أبوه عاطلًا عن العمل وكذلك اثنين من أخوته وأصبحوا جميعًا في أشد الحاجة للصدقة.... بل أنه قام بتشغيل أحد أخوته معه في المحل براتب شهري وأخذ يدربه على العمل ليعتمد على نفسه مستقبلًا.

(٢٠)

استقر وضع فراس في محل البوفيه الذي اتخذه في مدينة جدة وتحسن حاله المادي وأصبح يفكر في زيارة أمه في دمشق بعد أن عمل في تدريب أحد أخوته للوقوف في المحل في حالة غيابه، لكنه ذات يوم أتى إليه والده وسأله..

- ألم تصل من أمك رسالة تخبر فيها عن سمر وسميرة.
- لم يصلني شيئًا.
- أنني أفكر في السفر إلى دمشق.
- كان بودي أن تترك ذلك لي.
- سوف أذهب أنا الآن و إذا أردت بعد عودتي أن تذهب إلى هناك... فأنا أفضل ذلك.
- كما ترى.

وبعد خروج والده من المحل اتصل فراس بأمه في الشام وأخبرها أن والده سوف يسافر إليها من أجل الاستفسار عن ابنتيه سمر وسميرة.

(٢١)

بعد فترة ليست بالقصيرة وصل السيد عصام أبو دف بعد أن تعدى الستين من عمره دمشق واتجه إلى شقة زوجته فريال فلم يجدها فاتجه إلى المكتب السياحي الذي تعمل فيه فوجدها هناك واستقبلته استقبالًا فاترًا وطلب منها أن تستأذن وتذهب معه إلى الشقة فاعتذرت وطلبت منه أن تقابله في الشقة مساءً فخرج من عندها بحسرته حيث لم تعد تلك فريال التي أحبها وتمنى أن يقضي معها أجمل أيام حياته. فذهب إلى بعض المنتزهات وبعد العشاء ذهب إلى الشقة فوجدها قد سبقته فدخل فإذا صورة ابنتيه سمر وسميرة معلقة في جدار الصالة التي تتوسط شقة زوجته وأخذ ينظر إليها ويسأل زوجته:

- إنني جئت أبحث عنهما يا أم فراس..
- إنهما قد لا تعودا ثانية.
- ماذا تقصدين؟
- أقصد أنهما ربما حصلتا على الجنسية الكندية.

- ولكنني أريد ان أراهما؟

- كانت غلطتك من البداية.

- لم أكن أتوقع أن يحصل لي ما حصل.

- كان بإمكانك أن تتصرف عن طريق أقاربك وأنت داخل السجن. لقد أتى أبي إليك في جدة وعاد بحسرته من هناك ـ يرحمه الله ـ كان يريد أن يطمئن على أولادي قبل أن يموت. لكن.. الله المستعان.

- لم أكن أتوقع أن أدخل السجن يومًا من الأيام.

- هناك كثير من الناس يدخلون السجون ولكنهم لا يتنكرون لأقاربهم وذويهم.

- كنت أريدك أن لا تعلمي بذلك.

- قد عرفت. ولكن بعد أن فقدت أغلى ما أملك.

- كنت أريد أن أبقى في نظرك كبيرًا.

- ليس من يمشي في الطريق الآخر يبقى كبيرًا.

- ماذا تقصدين بالطريق الآخر؟

- إنه ضد الطريق المستقيم، وكان عليك أن تحسب لذلك حسابًا قبل سجنك.

- كثيرًا من الناس يعملون مثلي.

- ولكنهم كانوا حريصون.. أما أنت فقد ضيعت كل شيء حتى سمر وسميرة.

- لم يضيعهما غيرك.

- بل عملت أكثر من طاقتي وبإمكانك أن تسأل السفارة السعودية والسفير والموظفون كلهم يعرفونني من كثرة ترددي عليهم لأحصل لأبنائي على جنسية أبوهم.

- وماذا كان ردهم؟

- كان ردهم لابد من تسوية وضعهم من قبل أبيهم وأقاربهم. أما أنتِ فلا تستطيعين ذلك.

- كان عليكِ أن تكتبي لي عن ذلك.

- أرسلت لك أبي وأخي. وشكيت وضعي إلى السفارة فماذا تريدني أن أعمل بعد ذلك؟

- وأين البنتان الآن؟
- قلت لك: في كندا.
- وأين العنوان؟
- لا أعرفه.
- ألا تقولين أن بينك وبينهم رسائل؟
- إنهن كل شهر أو شهرين في مدينة.
- قلتِ أنتِ و فراس أنهما تدرسان في كندا.
- نعم قلنا ذلك والدراسة في كندا بهذه الطريقة.
- ألا توجد جامعة معينة تدرسان فيها؟
- هما تقولان ذلك.
- وأنتِ ماذا تقولين؟

عند ذلك انفجرت باكية ودخلت إلى غرفتها اتركني لحالي.. اتركني أرجوك.. هذا تحقيق.. أرجوك اتركني.. وأخذت صورة للبنتين كانت في غرفة نومها وأخذت تحضنها وتبكي.

- نعم إنه تحقيق.. أريد أن أعرف أين سمر وسميرة؟

- لا أدري. نعـم لا أدري.. ولكنني تلقيت اتصالًا منهما بعد غيابهما بفترة تقولان فيه أنهما تدرسان في كندا.

- وكيف كان ذلك؟

- عندما كبرتا ولم تسـأل عنهما لا أنت ولا أحد من أقاربهما وعاشـا فترة من الزمن بلا هوية ولا انتمـاء أصابهما إحباط وقنوط من الحياة بكاملها واتخذتا قرارهما دون علم مني.

- وكيف تقولين أنهن في كندا؟

- همـا يقولـون ذلـك وقلت ذلك لأنني أحسـب أنه سـيأتي منهمـا خبرًا أعرف منه أين هما؟ وهل هما على قيد الحياة؟ أم لا؟ ومـاذا كانـت وجهتهما؟ وأنا كما ترى لا يهنـأ لي بال ولا تغفى لي عين ولا ألتذ بطعام أو شراب. إنني حقًا لا أعلم أين هما؟

- منذ متى..؟

- ... اتركني بهمي الله يرضى عليك

- إنه همي أنا أيضًا... لا إله إلا الله..

أعـوذ بالله من الشـيطان... اعذريني يا أم فـراس.. من قهري رفعت صوتي عليك..

- أنـا المقهـورة لكنني صـابرة..وأنت تريد أن تفـهمني أن الحق معك..

- هيـا بنا نخرج إلى أحد المطـاعم لأخبـرك بما حصل لي أثناء غيابي..

- فليكن...

- فلنذهب إلى الملهى المعهود...

- كما تريد..

عندما وصلا إلى الملهى بدأ عصام حديثه قائلًا:

كنـت في بداية حياتي أعمـل في وظيفة حكومية بسـيطة لكنني عندما جربت الأعمال الحرة مشـيت بها ورزقني الله من كل حدب وصـوب. لكنني في آخر الأمـر وقعت ضحية خيانة من الشـخص الذي وضعت ثقتي فيه...

(وياغافل لك الله)

توفقـت في عملي وكنت أديـر أعمالي باقتـدار ومددت يدي لأخـواني وأقاربي لكن خطأي أنني كنت واثقـا في المهندس الذي كان يشرف على سير أعمالي رغم أنني لم أكن بخيلاً معه وأمضى لـدي فترة طويلة وكنت أغدق عليه المكافآت وأعطيه نسـبة أحيانًا من دخل المؤسسـة....والحقيقة أنني استفدت كثيرا في بداية الأمر وكبر رأس المال. وسـاهمت في كثير مـن الأعمال الخيرية فأنا من أسرة محافظة..... ولم أكن أنوي اسـتغلال العمال أو أرهقهم في مداخيلهم بل كنت أحصل على أتعابي وأتعاب المكتب وكذلك خدمتهم في الجهات الحكومية.

بعد أن طال احتجازي على ذمة القضية أصبحت مطالب ب ٣ مليون ونصف وأنا لا أملك نصفها.. ونزل هذا الخبر على زوجتي وأطفالـي مثل الصاعقة.....أما أنت فلا تعلمي عن ذلك شـيا وأن كنت أدعو الله أن لا تعلمي بذلك..... تغير أهلي ونبذوني.... ولم يزرني أحد من إخوتي بحجة أنني كنت استولي على أموال حرام... والله قد انتقم مني....

ومضت أربع سنوات من سجني وقد سددت أغلب المبلغ المطلوب ثم سدد فاعل خير المبلغ المتبقي.

وجدت زوجتي هي الوحيدة التي وقفت بجانبي.... فباعت البيت الذي تسكن فيه مع أولادي... وسكنت في شقه بالإيجار وعاشت في كفاف من العيش....بعد أن تنكر لنا كل أقاربنا وأصدقائنا.....تعلمت في السجن كثيرًا من الدروس التي لم أكن أعلمها في حياتي..... لكن بعد فوات الأوان..

عندما أتى والدك وأنا في السجن كنت في حالة سيئة جدًا... ولم يكن عندي ما أدفع له....ولم يكن عندي صديق أثق فيه لاستدين له بعض المال وأرسله إليك.... فقد تنكر لي الجميع ولم يزرني منهم أحد في سجني فكرهتهم.....ولم أحاول أن أطلب منهم شيئًا....

لذلك فقد عاد والدك مكسور الخاطر وكان في أملي أنني سوف أخرج من السجن ثم أحصل على بعض المال وآتي إليكم.....

ولكنني تأخرت.. نعم تأخرت هذا قدري.....لم أخبر به أحدًا ولم يكن لي أي جريمة قد أخجل منها.. وإنما هي الأقدار.

عندما كنت في السجن طال انتظاري للجلسة التي سيحكم عليّ فيها القاضي. وكنت أتثاقل الوقت كي أحاكم..... لكن أوراقي طالت في إدارة الشرطة....بحجة أنهم ينتظرون من يتقدم ضدي بشكوى ليضيفوها إلى المديونيات التي أطالب بها... وتشبك مع المعاملة..... وعند اكتمالها في إضبارة واحدة سوف تقدم للإدعاء العام.. الذي بدوره سوف يحقق فيها مرة أخرى ثم يحولها إلى القاضي. وأخذت هذه الأمور وقتا طويلا وأنا لا أملك من أمري شيئا.

كنت عندما يقترب رمضان أدعو الله أن يقوم أحد الموسرين بدفع المبلغ الذي أطالب فيه ولكنها كانت المبالغ التي تسدد من مديونيتي قليلة جدا.... وبعد أكثر من سنة..... قيل لي أن معاملتي تحولت إلى المحكمة ثم بدأت في سكة جديدة..... فتارة لم يحضر القاضي.....وتارة لا يحضر كاتب الضبط... وعلى كل حال.. يتأجل البت في القضية فتارة شهرين....وتارة أربعة أشهر.. ويا قلب لا تحزن..

كنت في أشد الشوق أن أرى أقاربي في أيام الأعياد.... لكن لم يزرني أحد.... فزادت مصيبتي أكثر وأكثر.... كانت زوجتي تأتي

بعد كل شهر.لكنني لا أتمالك نفسي وهي كذلك فهي تبكي عندما تراني خلف القضبان وأنا ابكي أيضًا....وكان سؤالي دائما هل انتم بخير..؟ فترد بإ يمائة من رأسها ثم تنصرف.

كان الصيف حارا رغم أن السجن به تكييف لكنه لا يكفي لكبر المبنى.....كانت في ساحة السجن الداخلي برادات ماء كثيرة وكنا ننتظم عندها مثل من ينتظم عند الخباز ليحصل على رغيف العيش.

وفي صباح يوم الجلسة أخذوني بسيارة الشرطة وذهبت إلى المحكمة ودخلت إلى القاعة باحثا عن أهلي وأقاربي فلم أجد أحدا.

وحكم علي القاضي بخمس سنوات على أن تحتسب المدة التي قضيتها في السجن قبل صدور الحكم من ضمن مدة الحبس المحكوم بها....وأفهمني أن بقي من المبلغ المطلوب مليون ومائة ألف.ريال... وأن عليّ تسديدها قبل الخروج من السجن... وبعد وصولي إلى السجن جاء خبر بتثبيت حبسي خمس سنوات... وبعد أيام جاء التقرير إلى المحكمة رسميًا.وعملت فيش وتشبيه....وهذه تعني إكمال موضوع البصمات واثبات شخصيتي من أصحاب السوابق. ثم عدت إلى العنبر الذي اقبع فيه.

ثم تم تسديد البلغ المتبقي عليّ من بعض أهل الخير وخرجت من السجن...

أما عن حضور مصطفى إلى جدة فقد كنت في تلك الأيام لا أملك شيئا.... ولو أتيت معه عندئذ لكنت سأدخل السجن هنا لأنك ستطلبين مني مصاريف..... وأنت على حق في ذلك.... وحتى قبل الوصول إليك.... لا أملك قيمة التذكرة التي سأركب بها... فكانت الأقدار أقوى مني وما تركتك عن ملالة فالله وحده هو الذي يعلم...

- وضعت وجهها بين كفيها وقالت:

أتريد أن تسمع مني بعض ما قاسيت في غيابك... أليس كذلك...

- كما تشائين..

- أما أنا فقد أنهكتني الوحدة في الشقة فلم يكن لدي أي مكان يمكن أن أتفسح فيه أو أطرد أفكاري المتعبة... سوى هذا الملهى وكنت أرى أنني أسرح بأفكاري دائما فيه في دوائر مفرغة.

كان الألـم يسـري في جسـدي والغبـن يعـوي في داخلي.... وفاضت عيناي بدموع الخـذلان الذي ارتويت من معينـه الضـحل حتى الثمالة.

كان التلفزيون أحيانًا يعرض بعض المسلسـلات التي تذكرني ببناتي فلا أملك إكمال الحلقة.. فأغلقه ثم أخرج إلى البلكونة لكي أُبلل أفـكاري بمشـاهدة الشـارع وزحمة السـيارات ومتابعة المارة وأتسلى بها بعض الوقت.

أعود إلى السـرير وابتسـم ابتسـامة مـرة.... بعـد أن قلب لي الزمـان ظهـر المجـن.... حاولت أن أنسـاك يا عصام أو أتناسـاك بشـتى الطرق.....لكنني فشـلت.... فكنت لي نعـم الزوج عندما كنت معنا..ولكن ما الذي دعاك أن تتركنا ولا تعود...؟

وأخـذت أضـرب أخماسًـا بأسـداس فالزمن قـد أتعبني من بعدك..... فهذه الإنقـطاعة ليسـت بدون سـبب.... وقلت في نفسي:

قد يكون هناك أمرًا أقوى منك ومن تصوري أنا أيضًا.....

ولا زلت أختزن لك في قلبي أحاسيس لينة الملمس...والغائب دائما عذره معه.....ولابد أن أعرف ذلك في يوم من الأيام.

قررت بعد ذلك أن أخرج إلى الأسواق وكأنني أبحث عنك فخرجت إلى سوق الحميدية كي أقابل وجوه جديدة.... ولعلني أقول لنفسي ربما أن عصام قد أتى إلى الشام....وتزوج بأخرى ولعلي أجده في زحمة المارة... في هذا السوق.....لكنني وجدت بدلا منك... إحدى صديقاتي أيام الجامعة..... قابلهتا هناك... وأرادت أن تصحبني إلى إحدى المطاعم....لكنني رفضت....فأنا لا أريد أن أدفن رأسي في الوحل وأنا أعلم أنني لست مرتاحة.... وليس بقلبي مكان للسهرات والتنزهات.. وليس لدي إلا بعض الفلوس التي تكفيني مصاريف البيت ولا أريد ان أتحمل أفضال لا استطيع ردها....

أعطتني تلفونها لكنني عازمة على عدم الاتصال بها فجلوسي لوحدي يكفيني...بعد سفر بناتي...ولا أريد ان أساهم في زيادة متاعبي ويكفي أن زوجي ألقانا في مزبلة الزمن الصعب.

- هـل تعتقديـن أن صاحـب المطعم الـذي كانـت البنات يعملن به له علاقة بسفرهن خارج سوريا..؟

- اعتقد ذلك...

- دليني على المطعم فأنا لابد أن استفسر منه..

- متى ستذهب إليه...؟

- غدًا سأذهب اليه..

وصل السيد عصام إلى المطعم وطلب منه عشاء وجلس بالقرب من صاحب المطعم فأخذ يأكل طعامه ويسأل صاحب المطعم:

- كان هنا قبل فترة بنتان جميلتان هنا في المطعم.

- نعم لقد سافرا إلى تل أبيب.

- تل أبيب.. ولماذا؟

- إنهما يهوديتان.

- سمر وسميرة.. أليس كذلك؟

- نعم. إنهما يعملان هناك في ملهى ليلي.

- وكيف ذهبا إلى هناك؟

- كانتا ترغبا في الانتماء إلى إسرائيل.
- الذي أعرفه أنهما مسلمتان.
- كانتا كذلك.
- أتعرف مكانهما في إسرائيل؟
- ماذا تريد منهما؟
- أبوهما يسأل عنهما.
- أبوهما هو الذي دفعهما إلى ذلك.
- كيف؟
- لقد تركهما أكثر من خمس سنوات ولم يسأل عنهما فما كان منهما إلا أن طلبتا الذهاب إلى إسرائيل خوفًا من البقاء بدون هوية.
- أتعرف أمها؟
- أعرفها، وأعرفه أنها تعمل في مكتب سياحي.
- هل لها علم بذلك؟
- لا أعتقد.

- أنت من دبر موضوع سفرهما. أليس كذلك؟
- ساعد ت فقط.
- وماذا تعملان في إسرائيل الآن؟
- لا أدري. لكن ماذا يهمك منهما؟
- أريد أن ألحق بهما.
- ماذا يريدون منك أنت. أنت لا تصلح حتى عتّالا ولا حارس عمارة.
- إنني أريد أن أرجع بهما.
- لا تستطيع ذلك.
- لماذا؟
- هو تحقيق. لا أدري. أنا لا أعرف عنهما شيئًا.
- بل تعرف كل شيء.

وأخذ بحلق قميصه وضربه ثم هوى عليه وأخذ حديدة كانت بجانب الكرسي وضربه بها على رأسه حتى فارق الحياة..... ولم ينتهي العراك إلا والبوليس واقفًا على باب المطعم فسلم نفسه

لهـم وغادر إلى قســـم البوليـس بعد أن قـتل عامـــلًا كان معه حاول مسـاعدة صاحب المطعم.

وفي قسـم البوليس اعترف السيد عصام أبو دف بقتل صاحب المطعـم مع سـبق الإصـرار، أما العامـل فقد كان دفاعًا عن نفسـه الشـيء الذي جعل ضابط البوليس يشكك في أمر صاحب المطعم فأخذ فرقة مـن الجنود وداهم به منزل السـيد فريد ومطعمه فوجد أنـه كان مـن أكبر مزوري جوازات السـفر واتضحـت الرؤيا حول موقفه. فقد كان من رجال المخابرات الإسرائيلية ومن أكبر عملاء الموسـاد.... وبسـبب ذلـك خفف الحكـم عن السـيد عصام أبو دف من السـجن المؤبد إلى سـبع سـنوات مع الشـغل والنفاذ.... والحكم الصادر بحقه من أجـل قتله ذلك العامل واحتسب دفاعا عن النفس....

❀❀❀

(٢٢)

بعد أن دخل عصام إلى سجن دمشق وبعد انتهاء العمل في المكتب السياحي الذي كانت تعمل به فريال كانت تكره العودة إلى البيت لوحدها.....

فكانت تذهب إلى الملهى نفسه... فهو قريب من شقتها وكانت شبه حصة ليلية....فترى إنها تخرج من مدافعة الأفكار التي تأخذها إلى كل مكان....

اعتاد النادل على حضورها أغلب الليالي.... وغدا يأتي إليها بالقهوة التي اعتادت تطلبها منه..... كان يعرف مكانها في الملهى في الطاولة الأخيرة.....والتي تطل على المدينة والشارع الكبير...

كانت ترى من شرفة المقهى ازدحام الطريق الذي تقبع فيه أغلب الملاهي على نهر بردى في أسفل جبل قاسيون...

وترى من خلف النهر البيوت المقابلة للملاهي في الجانب الآخر وقد نامت على أكتاف النهر...

كانت تنظر إلى النهر وهي تود أن تنزل إلى الماء لتضع أقدامها

فيه ليسحب من جسمها متاعبها وهمومها..... فلربما يكن عنده القدرة على ذلك.....كانت تود لو أنها تمد جسمها على مياه النهر ثم يذهب بها إلى غير رجعة.... ثم تغمض عيناها فلا ترى أحدا..... لكن هناك صورًا تحت الأجفان أنها صورة سمر وأختها لا تفارقها أبدًا.....

كلما حاولت أن تستمتع بمنظر النهر ترى أن النهر يرفض حتى مناجاتها..... فتجلس ما شاء الله لها أن تجلس...ثم تعود إلى شقتها..وقد احتملت هموما أكثر من تلك الهموم التي كانت تريد أن تغمرها في النهر.... نعم كانت تريد الجرح أن يأخذه النهر منها... لكنه لم يفعل بل حملها هموما أخرى...وهذا قدرها.... وليس بيدها أن تغير الأقدار....

ذات ليلة بينما كانت تنظر إلى نهر بردى... وتحتسي قهوتها إذ دخلت تلك الفتاه من بوابة الملهى واتجهت إليها وانكبّت عليها وهي تبكي.

لم تعرفها للوهلة الأولى.... لكنها عرفت من صوتها عندئذ أنها ابنتها سمر....لم يكن استقبالها حارًا. لكنها عندما أبصرت

الحالة التي أتت بها ذهلت ودب في قلبها شعور الألم الذي لم يزل ينـزف منذ أن فقدتهـا. وأخذت تبكـي معها لا شـعوريا...وغدت الطاولة مسرحا لمرتادي الملهى.... وهم ينظرون إليهما.....

قالت سمر:

إننـي من أول النهار وأنا ابحث عنـك... ولم أجدك في البيت الـذي ولدنا فيه.....ولم أجـد من يدلني عليـك... لكنني توقعت أن أجدك هنا.... أخـذ بعض مرتادي الملهى ينظرون إليهما وهما تبكيان فقالت فريال:

أولًا..... أين أختك سميرة..؟

- إنها تزوجت ولم تعد معي..
- هل كنتما في إسرائيل حقًا..؟
- نعم هذا صحيح..
- اللللله لا يوفقكم..
- لم نتـــوفق يا أُمـي.. منذ خروجنا من سـوريا ونحن من نكد إلى نكد...

- ولماذا رجعت وتركت أختك هناك..؟
- لقد تزوجت من شاب يهودي ولم تعد بحاجة لي..
- وكيف خرجتما من سوريا..؟
- قصة طويلة... أحكيها لك في الشقة...
- يالله قومي... الله لا يوفقك...
- لا تدعي يا أمي.. إن حالتنا لا تحتاج إلى زيادة..
- يالله هيا إلى الشقة..

وعند وصولهم إلى الشقة.. بكت سمر كثيراً وقالت لأمها:

أنا جائعة يا أمي... أعطيني أي شيء أرجوك ثم اسمعي مني...

وبعد أن أكلت بدأت تحدث أُمها:

في ذات يوم وبينما كنا جالستين بعد وجبة الغداء في المطعم سألنا السيد فريد صاحب المطعم:

- ماذا تم في موضوع جنسيتكما؟

- كما هي لا نحن سعوديات ولا سوريات (قالت ذلك سميرة).

- أنتما جميلتان ولو كنتما يهوديتين لاستطعت أن أجد لكما الجنسية.

- أعوذ بالله. قلت ذلك أنا.

- حقًا أنتما جميلتان وإسرائيل لا تمانع في قبول اليهود من سائر أنحاء العالم وعلى الأقل يكون لكما جنسية وهو أفضل من الوضع الذي تعيشانه الآن.

- لا نريد جنسيتك التي تعرضها.

- فكرا حتى الأسبوع المقبل فإذا كان الجواب إيجابي فإنني سأتدبر إحضار جوازات سفر لكما.....جوازات سفر عراقية.....كما أنني سوف أدفع لكما قيمة تذاكر السفر التي تذهبان بها إلى إسرائيل.... ثم إن هذه الجنسية بإمكانكما العودة بها إلى سوريا إن أحببتما.....وذلك لزيارة والدتكما وعلى الأقل يكون لكما جنسية وهوية وطنية والسفارة العراقية سوف تعاملكم

أنكـم من الهاربين من الحرب في العراق..... وتكون جنسـيتكما عراقية. ثم ضرب على كتف سميرة وانصرف.

كأن ذلـك الـكلام قد وجـد رواجًا لدينـا والجنسـية العراقية تفسح لنا المجال في العمل في أي دولة بغض النظر عن الديانة

قالت لي سميرة:

- ألا ترين أن عرضه مغريًا.؟
- إنه يطلب منا أن نعتنق اليهودية.
- لكنـه الطريق الوحيد الذي يمنحنا الجنسـية العراقية هناك كثير من اليهود في العراق.
- سوف يكون أصعب علينا من البقاء دون جنسية.
- سوف نمثل عليه حتى نحصل على الجنسية العراقية.
- ماذا سنعمل إن هو أرسلنا إلى إسرائيل.؟
- أي شغل. المهم نعيش مع الناس.
- وأمي. ألم تفكري فيها.؟
- على الأقل سنذهب بهمنا عنها.

- بل ستكون مشغولة علينا أكثر من ذي قبل.

- إذا وصلنا إلى إسرائيل فسوف نكتب لها مراسيل عن طريق قبرص مثلما يفعل الفلسطينيين وغيرهم.

- أعرف من كلامك إنك مقتنعة بعرضه.

- نعم ولكنني أريد أن تأتي معي على الأقل نكون نرى بعضنا هناك ونعمل في مكان واحد.

- أنا لا أريد أن أذهب إلى إسرائيل.

- أما أنا فقد اتخذت قراري.

- لن أدعك تذهبي بمفردك.

- إذًا اذهبي معي.

- وأمي.

- لن نخبرها حتى نصل إلى هناك.

- اتفقنا.

وفي اليوم التالي كنا قد اتخذنا قرارنا بالموافقة على اعتناق الديانة اليهودية ومن ثم الموافقة على إجراءات سفرنا إلى

إسـرائيل، وبدأ السـيد فريد في تجهيزنا لذلك..... وأرسـلنا إلى موظف بالسـفارة العراقية في دمشق..... وتم استصدار جوازات سـفر عراقية على أننا يهوديتان... ثم اصطحبنا صاحب المطعم في بداية الأمر إلى منـزله ومن ثم اعتـنقنا الديانة اليـهودية وتمت عملية التعميد كما سـماها وبدأنا نسـتعد للسـفر إلى قبرص ومنها إلى إسرائيل.

قبل ذلك طلب منا إحضار صور شخصيه.....

.....وتم ذلك..... ثم رسـم لنا خارطة طـريق على أن نذهـب إلى قبـرص وهناك قام بتـرتيب من يقوم باسـتقبالنا ثم نـتوجه إلى تل أبيب....

❀❀❀

(٢٣)

وصلنا إلى إسرائيل وكان في انتظارنا في المطار ذلك الشخص الذي اتفق معه صاحب المطعم السيد فريد على استقبالنا..

وصلنا إلى تل أبيب قادمتان من قبرص وكان ذلك الرجل النحيف صاحب وجه كريه...كان بيده لوحة كتب فيها سمر وسميرة فاتجهنا إليه...

كانت ملامحه تدل على إجرام كبير... فأخذنا في سيارته وابتعد بنا عن المدينة قليلا..... حتى وصلنا إلى قرية صغيرة من ضواحي تل ابيب ووصلنا إلى فندق صغير وأنزلنا فيه.... وكان قد حجز لنا الغرفة....

أقفل علينا الباب من الخارج وأخذ المفتاح معه ومضى أسبوع على هذه الحالة...فقط في وقت الطعام يفتح الغرفة ثم يأخذنا إلى المطعم ويعيدنا إلى مكاننا....

كانت الغرفة تطل على إطلاله جميلة جدا....وفي كل ليلة يذهب بنا إلى مسرح من المسارح الموجودة في تل أبيب ويجلس

معنا على طاولة قريبة من البست الذي يظهر عليه الراقصات والمغنيات....وكان يذهب إلينا ويعود بحجة أنه يبحث لنا عن عمل..... وكل مرة يأتي برجل أو إمرأة.. فيعرضنا عليه..... كان ذلك السمسار كمن يقيم علينا حراج لسماسرة الملاهي الليلية حتى رسا المزاد على عجوز تملك ملهى في تل أبيب ودفعت الثمن لذلك السمسار وأخذتنا إلى غرف داخل الملهى...

والذي تبين لنا بعد ذلك أنه باعنا على صاحبة المسرح.... وأخذت جوازات سفرنا منا.... فذهبنا إلى الفندق الذي ننزل فيه وأخذنا ملابسنا وعدنا إلى ذلك المسرح.....

في شارع ديزنغوف. كان هذا الملهى من أكبر النوادي الليلية في منطقة الواجهة البحرية من تل ابيب.

كانت صاحبة الملهى عجوز شديدة جدا وقاسية علينا جدًا أيضًا...

بدأت تلك العجوز على تعليمنا طريقة استقبال الزبائن والرقص والغناء وما تتطلبه أعمال الملاهي الليلية..... وقد

حاولت سميرة شق عصى الطاعة على تلك العجوز.... إلا أنها أخبرتنا أنها قد اشترتنا كبضاعة.... وأي فتاة لا تريد ذلك فلن يكون مصيرها إلا الموت.

ومن اليوم التالي بدأت الصفحات السوداء من حياتنا.... بدأت تلك العجوز تعلمنا الرقص..... وكذلك مقابلة الزبائن والخروج معهم.. والاختلاء بنا في غرف معدة لمثل هذا...

من اليوم الأول خسرنا كل شيء في حياتنا... ولم يعد لدينا ما نخسره بعد ذلك.... أما صاحبة الملهى فقد حصلت على بضاعة ثمينة وأخذت تحسن للزبائن البضاعة الجديدة. وكنا نحن تلك البضاعة..... وكانت تكرمنا وتشتري لنا أجمل الملابس لكي تحسن بذلك دخل الملهى فهي التي كانت تقبض الثمن....

كان في الملهى حراس أمن.... غلاظ شداد...تخاف منهم حتى الأرض والجدران.... ففي حال عصيان إحدانا.... كانت تدخلها في غرفة ثم توكل حراس الأمن بتأديبها.... ولا تسألين بعد ذلك كيف يكون العقاب...

(٢٤)

استيقظت من نومي ذات يوم وأنظر إلى سميرة وهي نائمة على سريرها فإذا هي جميلة جدًا. فقلت لنفسي:

- كم أنتِ جميلة يا سميرة..... أنتِ جميلة جدًا. وأنا أيضًا جميلة.

❀ نعم إننا جميلتان حقا..

❀ لكن ما فائدة هذا الجمال.

❀ لقد أضعته أنا وأنتِ.

❀ يعني الآن نحن لا دين ولا دنيا.

❀ أين الأموال التي وعدنا بها فريد صاحب المطعم.

❀ الله لا يوفقه لقد ضحك علينا.

❀ لو أننا بقينا في دمشق لربما أن الله يسر لنا من يتزوجنا وكنا الآن مستورتين نعيش مع أزواج ويرزقنا الله بأطفال.

❀ أما الآن..... لا هذه ولا تلك مع هذه العجوز الملعونة وأحوالنا لا تسر.

❀ لا بد أن نتخلص منها.

❀ كيف أمي الآن!!

❀ إنها في حالة سيئة بالتأكيد.... لقد دمرناها..... إن كانت إلى الآن على قيد الحياة.

❀ وأبي!!!

❀ ربما قد عاد إلى سوريا.

- وأخي.. ماذا سيقول له الناس إذا كُشف أمرنا.
- يقولوا أن أختيك....؟..
- ماذا سيكون رده.
- الله يعينه المسكين.
- إنه ضحية مثلنا.
- أخذتنا قسوة الحياة إلى الجحيم نحن جميعًا.
- لكنه صبر.. أما نحن فقد اتضح أننا بلداء.
- لم نفكر إلا بأنفسنا، كيف نعيش؟

- لم نفكر في ذلك المسكين ما سيلقى بعدنا؟
- لو علم الناس بأمرنا وأخذت الكلمات تنهش فيه، تعيّره بنا.
- إننا مجرمتان.
- لسنا جميلتان.
- لئيمتان.
- فاجرتان.
- هذه هي الحقيقة.
- والآن!! ما العمل؟ هل نستمر مع هذا الحال؟؟
- إنه رخص الحياة.
- إن المـوت أهون لنـا من ما نحن فيه. ولكن كيف نموت؟

نعم.. كيف نموت؟

ولـم تنقطع تلك الأفكار إلّا على صوت صاحبة الملهى تلك العجوز بصوتها الرخيم.

- قومي يا شميرة غسّلي البلاط.
- الله ينتقم منك. يالله يا بنت. يالله قومي.

- نعم. كم الساعة؟

- الساعة كما هي نحن ندور والساعة كما هي. نحن اللتان تعبث بنا الحياة والزمان كما هو.

هيا قومي. إنها تنادينا.

- ..... ثم جلست على سريرها....كنت أسمعك تحدثين نفسك.. أليس كذلك.؟

- أقول لقد ضعنا يا سمير ة.

- ضحكت بصوت مرتفع. لقد ضعنا منذ خرجنا من دمشق ألم تعلمي؟

هلّا علمت بذلك، لقد انتهينا من زمن. أنا وأنت الآن كالدمى يلعب بهن كل من يدفع مالًا لهذه الحمقاء.

- قومي الآن نغسل البلاط وبعد ذلك سأخبرك بأمر يجول بخاطري.

بعد ذلك لبسنا ملابس الخدمة وقمنا لغسيل بلاط الملهى وتنظيفه وترتيبه وصاحبة الملهى تتابعنا بكل قسوة.

- هذا المكان لم يغسل جيدًا.
- هنا باقي أثر لبعض المشروبات.
- عليك أن تمسحي زجاج المدخل.

حتى انتهينا من عملنا... وبعد العودة إلى غرفتنا قالت سميرة:

- ما هو التفكير الذي يجول بخاطرك؟
- هل من الممكن أن نصلح الغلط الذي وقعنا فيه؟
- لا يمكن الآن؟ فقد فقدنا كل شيء.
- بل بإمكاننا أن نفعل شيئًا.
- كيف؟
- نريد أن ننهي عملنا في الملهى ونسافر إلى أوروبا.
- وماذا تريدين أن تعملي هناك؟
- أي شيء.
- لا يمكن الدخول بدون فيزا.
- نحن يهوديتان الآن وبإمكاننا أن نذهب إلى أي بلد أوروبي

ونعمل هناك ولكن جوازات السفر مع هذه الملعونة. وقد يكون العمل هناك مثله هنا.

- لا أريد أن أبقى معها.
- سنقابل ملعونة أقبح منها.
- ماذا نفعل إذًا؟
- اتركي لي هذا الأمر أتدبره بنفسي.
- إلى متى؟
- دعيني أفكر. ومرت الأيام..

لقد تعرضنا يا أمي للضرب والتجويع والسجن في غرف كريهة في بدروم الملهى حتى وافقنا على طلباتها ونزعنا غطاء الحياء وكرامتنا ووضعناها تحت أقدامنا حسب ما أملته علينا ظروف الحياة. وبقينا لديها فترة من الزمن....

ونظرًا لنظارتنا وجمالنا واعتناء تلك العجوز بنا بعد ذلك فقد زاد عدد مرتادي الملهى...وحسن الدخل بالنسبة لتلك العجوز الشيء الذي أدى إلى طلبنا أجرً مضاعفًا..... حيث أننا نجمتا

ذلك الملهى.....وأكثر زبائنه لا يأتون إلا لمقابلتنا واستوىٰ لدينا الموت والحياة.....فقررنا الاستمرار في عملنا... فهي قد سحبت منا جوازات السفر التي كنا نحرص بها على الحصول على جنسية عبر ذلك الطريق... إلا أن كل شيء قد ذهب أدراج الرياح فقد أصبحنا لا جنسية ولا دين ولا عمل شريف ولا.. ولا.....

وكل ما هنالك اتصالنا بك بين فترة وأخرى نخبرك أننا بخير وبصحة جيدة.

وفي ليلة من ليالي الصيف جلست أنا وسميرة وقد عاد إلينا هاجس الندم والذنب الذي نقترفه كل ليلة فقلت لها....

- كانت غلطة كبيرة موافقتنا لذلك اليهودي فريد.
- كان يمنينا بالرفاهية.
- لقد أدركت أنه كان يلعب بنا منذ الوهلة الأولى.
- كنت أحسب أنني سأعيش مثل بقية الناس.
- كنت تتلهفين حول الانتماء لأي جنسية.
- ماذا أعمل إذا رفضني أبي.؟

- لا سامحه الله.

- ما هذا الذي في كتفك.

- إنها تلك الملعونة ضربتني بسيخ النار عندما طلبني أحد العملاء فلم أسمع كلامه.

- لقد كوتني أنا ايضًا قبلك في خدي وهذا أثره ألا تذكرين

- بلى....

أنني أريد أن أصلي.

- صلاة يهودية أم مسلمة.

- والله لم أعد أعلم أين أنا؟

- أما أنا فلم يكن تلبسي باليهودية إلا غطاء لكي أحصل على الجنسية العراقية ولكنني قد أضعت الدين والجنسية.

- هذا هو عقاب الله لنا.

- الله يجازي الذي كان السبب.

- غيرنا كثير.

- كل الضائعين مثلنا.

- إننا مثل اليهوديات اللاتي يعملن معنا... إنهن مثلنا تمامًا.

- ونحن يهوديتان. ويا قلب لا تحزن.

وإذا جرس الباب يقرع فتدخل منه العجوز وتقبل علينا بأقبح الأوصاف والشتائم..... فالزبائن بحاجة إلى من يقوم بخدمتهم وأنتما جالستان هنا،.... فما كان منا إلا أن قمنا وبدأنا في عملنا مرة أخرى....

(٢٥)

بدأنا أنا و سميرة في التفكير جديًا للتخلص من العمل في الملهى فما كان منا إلا أن تعرفنا على شاب عربي....كان يرتاد الملهى بصفة دائمة.....وكان أيضًا يهوي الجلوس معنا. فأخذنا وتسايره في الكلام ونكثر الجلوس معه..

الشيء الذي أغراه بطلب الجلوس مع سميرة منفردا فوافقت واستأذنت صاحبة الملهى في الجلوس مع ذلك الشاب الثمل فوافقت لها.....وجلست معه قليلًا وعقدت معه موعدًا يأتيها في وقت آخر حيث أنها لا تريد أن تتحدث معه وهو بتلك الحالة التي وجدته عليها.....كان غارقًا في حالة سكر...

فوافق الشاب على ذلك الاقتراح وأتاها من الغد وأخذت تتحدث معه حول جميع المواضيع التي لا تهم الموضوع الأساسي الذي تريد، تكلمه فيه حتى استطاعت أن تجمع معلومات عن ذلك الشاب وعن مكان سكنه والعمل الذي يزاوله وكثرت تساؤلاتها له..

- من أي مدينة انت؟

- من النقب.
- لماذا تأتي إلى هنا دائما؟
- إنني أريد أن أسكر لأخرج من همومي.
- إنها تزيدك همومًا فهي رأس كل مصيبة.
- أعرف ذلك.
- يا خسارة أنت شاب ولا يجب أن تكون مدمنًا.
- ما قصدك؟
- قصدي إنك لا بد أن يكون لك شأن كبير.
- سأموت اذًا.
- ستموت اليوم أو غدًا.
- ألست يهودية أنتِ!!!
- يهودية اسمًا فقط.
- إذًا أنتِ مسلمة.
- وأريد أنت تساعدني للخروج من هذا الملهى.

- فكرة طيبة.
- أريدك أن تساعدني وأنا أساعدك.
- في ماذا؟
- في قتل صاحبة الملهى إنني وأختي نريد التخلص منها
- متى؟
- دعني أفكر في الأمر ثم أخبرك.
- فكرة ممتازة.
- إذا أذعت سري فأنت أول من سيموت.
- وماذا سيكون الثمن الذي اقبضه أنا..؟
- ستكون جميع النقود الموجودة في الملهى من نصيبك
- وأنت ماذا تريدين بالضبط..؟
- أريد أن أخرج من إسرائيل.
- إلى أين؟
- إلى سوريا أو لبنان....

- بعد ثلاثة أيام سوف أخبرك...

وفي نفس الموعد حضر مازن إلى الملهى في آخر الليل وطلب بعض المشروبات لكن سميرة لم تدعه يسكر في هذه الليلة..، لقد أحضرت إليه مشروبًا غازيًا بدلًا من ذلك..

- ماذا معك من أخبار، قالت ذلك سميرة.
- لدي أخبار ممتازة.
- هل أنت موافق؟
- نعم ... لكن..
- لكن ماذا؟
- ماذا تريدين أنتِ..... قتل صاحبة الملهى؟
- نحن من سيقتلها نريد أن نخرج من إسرائيل.....إن جوازات السفر محجوزة لديها.
- ألا تستطيعي أن تسرقيها الآن.؟
- لقد أغلقت عليها في خزانة الملهى.
- أين تريدان؟

- نريد سوريا أو لبنان كما قلت لك.

- باستطاعتي أن أخرجكما إلى جنوب لبنان.

- هذا يكفي...

- كيف نتصرف؟

- يوم الجمعة سيكون العمل خفيفًا في الملهى....وفي وقت الظهيرة سوف يكون الملهى شبه خاليًا....وهي سوف تكون في غرفتها ودائمًا يكون باب الغرفة مفتوحًا وأنا وأختي سوف ندخل عليها ونخنقها في داخل غرفتها.

- إذا لا داعي لحضوري....

- أنا أدري بأنك تخشى أن نأخذ الفلوس الموجودة في الملهى.... لكننا لن نأخذ منها شيكلا واحدا.

- لا بد إنكما قد سئمتما من العمل معها..

- جدا.

- إذًا غدًا نلتقي، وتركته وعادت إلى عملها...

وفي اليوم التالي.

لاحظت صـاحبة الملهى أن هناك حركات غريبة.....
فأخذت الحيطـة وجعلت جرس الانذار قريبا منهـا وعندما دخلنا إلى غرفتها. لم تكلف نفسها أكثر من قرع الجرس.... مما أدى إلى إيقـاظ حرس الملهى والإمسـاك بنا ومن ثم تسـليمنا إلى البوليس الذي بدوره اكتشف خطتنا وحكم علينا بالسجن سنتين..

أُدخل السـجن فتى فلسـطيني اسـمه زهدي في قضيـة تزوير. وتعرفت عليه أختي سميرة..... وكوّن معها صداقة حميمة وأصبحا لا يفترقـان إلّا نادرًا واتفقا على الزواج بعد خروجهما من السـجن وقد خرج قبلنا بأكثر من شهرين لكنه لم ينقطع من زياراتها..

كان شـاب في بداية العشـرينات وسيم من قرية في قضاء جنين ثـم اشـتغل في سـوق الكرمـل في تـل أبيب.....بعـد خروجـه من السجن كانت سـميرة تعتقد أنه يهودي.... إلا أنها عرفت فيما بعد أنه مسيـــحي فزاد تعلقها به.....ولم تخبره أنها مسـلمة. وانساقت خلفه بقلبها وعواطفها.

مضى على دخولنا السـجن أكثر من سنة ونصف ولكن عندما قامـت الحرب الإسـرائيلية في جنوب لبنان عـام ٢٠٠٦ كان هناك

إعلان في السجن من قبل السلطات الإسرائيلية:

يتيح الفرصة للمساجين جميعًا من الذكور والإناث أنه في حالة ما يريد المسجون إكمال مدة سجنه في جيش الدفاع الإسرائيلي أو قـوات الأمـن..... فعليه التقدم إلى إدارة السـجن بطلب ذلك.... ووجدنا أن هذه فرصة للخروج من السجن... وفعلا تم تجنيدنا في قـوات الأمن وكانت هذه المرة الوحيدة التي خدمنا الحظ فيها فتم تعييننا في تل أبيب...

كانت سـميرة تريـد أن تبحث عن ذلك الشـاب الذي تعرفت عليه في السـجن (زهدي) فقد خرج من السجن قبلنا....وقابلناه وكانـت فرحتـه بنا كبيـرة جدا....واتفق مع سـميرة على أن يكون بينهم إتصال وأن يتقابلوا باستمرار واتفقا على الزواج أيضًا....

بعد ذلك كنا نكتب لك فنحن لم ننساك فكنا نذكرك ونبكي كل ليلة ونعلم أن ما حل بنا هو من أجل الخروج عن طاعتك وما سببناه لك من متاعب..... نكتب بعض الرسـائل وهو يقوم بإرسـالها عن طريـق مصـر والأردن إليك... ونحن نعلم أنـك لن تردين لأنك لا تعلمـين أين نحن ونحن نعلم... أننا قد ضعنا إلى الأبد....

تزوجت أختي من ذلك الشاب الفلسطيني الذي تعرفت عليه في السجن..... (زهدي) وتركتني في سكن الأمن وحيدة كنت آوي إلى فراشي والقنوط يعصر قلبي.... فأنا الفتاة الجميلة التي باعت نفسها للشيطان....

أنا البنت الجميلة ذات الرابعة والعشرين من عمري. عشت في بداية عمري بلا هوية ولا أنتمي إلى أحد....وليس لدي أسرة..... تركني والدي وذهب لا أدري إلى أين.... ولم أكن أحمل بطاقة تنسبني إلى أي دولة في هذا الكون..... ولم أملك من أمري شي..... إلّا جواز سفري المزور..... والذي ساقني إلى جهنم الدنيا والآخرة.... ولو أني بقيت في الشام أكنس الشوارع... لكان خير لي مما وصلت إليه.

- وكيف خرجت...؟

- بعد انتهاء خدمتي ومدة سجني خرجت إلى قبرص ثم أتيت إلى دمشق..

- لماذا أتيت الآن...

- لا أدري..إلا إنني ندمت على خروجي من الشام...

كانت فريال تستمع إلى ابنتها الملجوغة أمامها. وهي تحترق من داخلها وتود أنها لم ترها مرة أخرى... فقد كانت صورتها التي تتخيلها قبل أن تراها أفضل بكثير مما رأتها عليه الآن..... واحترقت وهي ترى ابنتها المنهارة صحيًا ونفسيًا وخلقيًا والتي ضاعت من بين يديها بمعنى كلمة الضياع.

كانت تحس بصوتها صرخات تخرج من ملامح ابنتها التي لم تعد إلى دمشق إلا بعد أن يئست من الأرض ومن عليها..... كانت تسمع في ملامحها صرخات لكنها خرساء.... أخرسها الوضع الذي قضته مع أختها في تل أبيب.

كانت تريد أن تتبرأ منها في تلك الساعة وتطردها..... لكنها أشفقت عليها بعد كل الذي سمعته منها..... إنها ابنتها المخطوفة بكل ما تعنيه هذه الكلمة في عقلها وكيانها وصورتها وجسدها... فهي وإن كانت تمشي على الأرض إلا أنها في عِداد المفقودين.

وضعت رأسها على المخدة وأخذت تقارن تلك الحالة التي

كانت عليها بما تراه منها الآن...وقد نحف جسمها وبرزت عظام وجهها وانحنى عمودها الفقري....وبانت عظام التراقي فيها..... حسبنا الله ونعم الوكيل.

- كل ما ذكرته عن الجنسية والانتماء لا يبرر خروجكم من الإسلام إلى اليهودية وهذا الجواز الذي حصلت عليه احرقيه في النار أو أعطينيه أنا أحرقه. أنتما قد اخترتما الذهاب إلى الموت.....بل اخترتما. السير في الطريق إلى جهنم. فارتدادك عن دين الإسلام... يوجب القتل شرعا.... إلا أن تتوبي... وتعودي إلى دين الإسلام من جديد....

- أشهدك أنني أعود الآن إلى دين الإسلام...

- انطقي بالشهادتين الآن..

- أشهد أن لا إله إلا الله...وأشهد أن محمدًا رسول الله.

- هذه الأولى..... أما امتهانك للدعارة والأعمال الساقطة.... فهذه عقوبتها لدى أبوك وإخوانك..... إما يقتلوك أو يطردوك أو يغسلون العار الذي وصختهم به أنت وأختك....وهذا

اليهودي الله لا يرحمه لم يجد من يضحك عليه سواك أنت وأختك لكنه نال جزاه...

- كيف نال جزاه..؟
- لقد قتله أبوك..
- وأين أبي الآن.؟
- إنه في السجن بعد ما قتل فريد والعامل الذي كان معه..
- يعني أبي في الشام..؟
- نعم.....ولعله يغسل العار عن نفسه بعد أن يخرج من السجن.....

وغدت سمر تفكر أن والدها سوف يخرج في وقت قريب ثم يكشف ما قامت به هي وأختها.... وسوف يقتلها..

وأخذت تفكر في ذلك كل يوم.... بل كل ساعة...

وفي صباح يوم من الأيام.. وعندما أفاقت فريال من النوم... لم تجد سمر.... لكنها وجدت رسالة على الكنبة القريبة من الباب قالت فيها:

والدتي....

أعتقـد أنني مريضـة بالإيدز.... لذلك لا أريد أن أسـبب لك عدوى....فاخـترت الذهاب إلـى العراق....قبل إن تحرقي جواز سـفري....ولعلني أجد من يدفنني.. إن أن مت هناك.....وأعلمي إنني لازلت مسلمة وإن كانت الديانة في جواز سفري يهودية.

ادعي لي يـا أُمي أن الله يغفر لي....وأرجو ألّا تخبري والدي عن عودتي إليك بعد خروجه من السجن.

اعتبرينـي يا أمي قـد خرجت من حياتك للأبـد.... وأنا أعلم تمامـا أنني متجهة إلى المـوت.....أو كما قلت لي عندما رجعت أنني أمشي في الطريق إلى جهنم.....وهذا قدري وقدرك أيضًا.....

لا تسـألي عني. فلن أعود أبدًا.... فأنا المذنبة. العاصية. التي ارتكبت كل الذنوب والمعاصي....ولا أدري سـيغفر الله لي..... أو أنني في الطريق إلى جهنم.

هـذا قـدري وأنـا قـد سـرت إليـه.. لا أدري كيـف ذهبـت إليـه.. لكنني قد خسـرت كل شـيء..... أيضًا أخبرك يـا أمي إنني

حامـلا..... لا أدري مـن هـو أبـوه. فلعلـي ألفظه في مـكان بعيد عنك....ولا أعتقد أنه سيعيش فلربما أنه مصاب بالإيدز أيضًا....

هذه الرسالة الأخيرة يا أمي... إن قرأتها فلا تحفظيها..... بل مزقيها أو أحرقيها..... فهي لا تستحق منك الاحتفاظ بها. أما أنا فلا أدري إلى أين أذهب.... لكنني أخاف أن يخرج أبي من السجن... ثـم يقتلني أيضًـا ويعود إلى السـجن.....وأنا لا أريده أن يعود إلى السجن مرة ثانية..... أنا في نيّتي الذهاب إلى العراق.... فأنا الآن في حكم الجنسية العراقية... ولكن احسبي أنني قدمِتّ....وأحسن الله عزاك يا أمي..... (المذنبة.... سمر)....

وانتهت الرواية

محمد بن عصبي الغامدي

١١-٤-١٤٤٠هجري